

فولتير
محطم الحسرات



يهفو الذهن إلى ذكرى فولتير كلما هبت على الأمة عواصف الظلام التي تقيد الحرية وتسوخ الاعتقال وتمنع الكتب وتراقب الصحف وتضع الحادود والسدادود للعقول، وتنهك النفوس البشرية بأفطع مما ينهك الفاسق الأجسام البشرية .

ذلك لأن فولتير عاش من أجل الحرية . وكانت إيماءة حياته احترام الإنسان وكرامة الناس وحريرتهم . ومن الحسن أن نقرأ تاريخه، ومن الأحسن أن يقرأه أولئك الذين حملوا النيابة العامة في مصر على أن تقوم بأكثر من أربعمائة تحقيق مع الصحف في أقل من سنتين بين سنة ١٩٤٤ و ١٩٤٦ ، ثم بعد ذلك منعوا بعض الكتب الأوربية من الدخول إلى مصر ، كما منعوا بعض المؤلفين من طبع مؤلفاتهم ونشرها .

ولد فولتير في عام ١٦٩٤ ومات في عام ١٧٧٨ . وتغير تاريخ أوروبا بحياته ، إذ نقل هذه القارة من التعصب إلى التسامح ومن التقييد إلى التحرير . وغرس بذلك شجرة الديمقراطية ، وحمل على العقائد والخرافات الضارة فحطمها ، كما بسط الآفاق لحكم العقول ، فظهرت الحكومات المدنية العصرية .

وقد كان فولتير يمثل الطبقة الجديدة البازغة ، طبقة الصناعيين والتجارين الذين شرعوا يأخذون مكان النبلاء في المجتمع الأوربي ، ومن هنا كان إحساسه بضرورة الحرية واحترام الكرامة البشرية عميقاً ، لأن النبلاء الإقطاعيين كانوا يستعبدون الفلاحين . وعاش فولتير طوال عمره وفي نفسه حزازة ، فإن أحد النبلاء استطاع أن يحبسه في سجن الباستيل وأن يراه وهو يجلد انتقاماً منه لبضعة أبيات من الشعر ألفها عنه فولتير . وقد خرج من السجن وهو يبغض النبلاء ويدعو إلى إلغاء النظام الإقطاعي . وسافر إلى إنجلترا وتقى بها أربع سنوات ، فأعجب بشيئين هما الدستور الإنجليزي الذي ينص على أن الحكم للشعب ، وأيضاً العالم الرياضي نيوتن . ولما عاد إلى فرنسا دعا إلى الأخذ بقواعد الدستور الإنجليزي في الحكم . ولو أن الحاكمن تنبهوا في ذلك الوقت إلى قيمة هذه الدعوة لعملوا بها . وعندئذ كانوا يتفادون بلا شك من جموح الثورة الفرنسية الكبرى .

وأسوأ ما تصاب به أمة أن يتحد الدين مع الاستبداد ، وأن يتحالف الطغاة مع الكهنة ، بحيث يستند الدين إلى قوة البوليس ، ويستند الاستبداد إلى أساطير الدين . وهذا ما فشا في فرنسا في القرن الثامن عشر . فقد صدر قانون في عام ١٧٥٧ بإعدام المؤلفين الذين يهاجمون الدين . وصحيح أن هذا القانون لم ينفذ ، لأن الذين وضعوه أحسوا بالأخطار التي يستهدفون لها إذا جرءوا على تنفيذه ، ولكن حركة التأليف وقفت أو كادت

بسبب هذا القانون . واستمر إحراق الكتب إلى عام ١٧٨٨ أى قبل الثورة بعام واحد .

ولكن فولتير استطاع أن يخرج العشرات من الرسائل الحرة بأسماء مستعارة ، أى مزورة ، كى ينجو من خطر الإعدام . وكان فى هذه الرسائل يحطم الأساطير ويحمل على الطغيان الحكومى والكنسى ، وقبل كل شىء يدعو إلى التسامح ، وأن الناس إخوة ولو كانوا مؤمنين أو ملحدين ، مسيحيين أو مسلمين يهوداً ، أو بوذيين .

ولتى فولتير عننا فى دعوته إلى الحرية ، وخاصة حرية العقيدة ، لأن الكنيسة الكاثوليكية كانت تحالف فى أيامه الحكومة الفرنسية ، وكانت تحمل الحكومة والشعب معاً على التعصب وإيذاء غير الكاثوليك . . وقد كتب فولتير بقلمه وأنفق من ماله كى ينقذ العائلات التى وقع بها الاضطهاد الدينى وكى يدعو إلى التسامح وحرية العقيدة .

واحتال كى يعيش وكى يرصد حياته للكفاح فى سبيل الحرية . وكان من احتياله أن اشترى أرضاً فى سويسرا وأرضاً أخرى فى فرنسا . وكانتا تتجاوران . وذلك ترقباً للاضطهاد من إحدى الحكومتين السويسرية أو الفرنسية . بحيث يستطيع الفرار إلى فرنسا إذا وجد الحملة عاياه من الأولى ، أو إلى سويسرا إذا وجد الحملة عليه من الثانية . وعاش على هذه الحال السنين الطويلة كى يؤدى رسالته ، وهى صيانة الحرية من الوحوش الآدميين الذين كانوا يكرهون من لا يؤمن بإيمانهم .

وقد كان فى باريس شىء يسمى « برلمان » ولكنه لم يكن يمثل الشعب ، ولذلك كان أعضاؤه يسرون وينقادون إلى دعاة الاستبداد من الحكومة والكنسية معاً . وقد عنى هذا « البرلمان » بأن يحرق قصيدة لفولتير !

وألف قولتير المعجم الفلسفي ، فمنعت الحكومة الفرنسية . بل معظم الحكومات الأوروبية ، تداوله وحكم على مؤلفه بالكفر .

وشاعت لقولتير أخيراً شهرة بأنه زعيم الحرية ، فكانت تصل إليه شكاوى المضطهدين من الأحرار من جميع الأقطار يطلبون منه الدفاع والإسعاف . وكان يجمع لهم المال كى ينقذهم من حكوماتهم ومن كنائسهم .

وما زلنا إلى الآن نسمع عبارة قولتير : « اسحقوا الخزى » . وهذا الخزى هو اضطهاد الأحرار المخالفين للكنيسة .

ومع كل ما اتهم به قولتير لم يكن كافراً ، فإنه كان يؤمن بالله أعظم الإيمان . ولكنه كان يعتقد أن الكنيسة يجب ألا تحتكر الدين . وأننا يجب أن نكون « إلهيين » قبل أن نكون مسيحيين أو يهوداً أو هندوكيين . وهو يقول إن :

« كلمة الإلهى هى الوصف الوحيد الذى يجب أن يتصف به الإنسان ، والكتاب الوحيد الذى يجب أن يقرأ هو كتاب الطبيعة . والديانة الوحيدة هى أن نعبد الله ، وأن يكون لنا شرف وأمانة . وهذه الديانة الصافية الخالدة لن تكون سبباً للأذى » .

وكان قولتير يرى الله فى كل مخلوق ، حتى قال : « إن فى البرهوث شيئاً من الألوهية » .

وكتب عن نفسه فى المعجم الفلسفى يقول :

« إنى أجهل كيف تكونت وكيف ولدت . وقد قضيت ربع حياتى وأنا أجهل تماماً الأسباب لكل ما رأيت وسمعت وأحسست . وكنت ببغاء تلقنى ببغاوات أخرى . ولما حاولت أن أتقدم فى الطريق الذى لا نهاية له ، لم أستطع أن أجد طريقاً معبداً ولا هدفاً معيناً ، فوثبت وثبة

أنا أمل الأبدية ولكنى سقطت في هوة جهلى .
 والواقع أننا حين نتأمل حياة فولتير نجد أن الكنيسة الكاثوليكية
 قد انتفعت بعداوتة لها لأنها كفت عن اضطهاد المخالفين . وكان هذا
 الاضطهاد أكبر ما توصم به في القرن الثامن عشر كما كان أكبر ما يعمل
 لفسادها .

وكذلك انتفعت بفصلها من الدولة ، لأن اعتلاء الدين للدولة يضر
 الدين ويحطه ، إذ يغنيه عن القوة الروحية والأخلاق السامية بما يستمتع
 به من قوة بوليسية وحماية قانونية . والدين يجب أن يتجرد من أى سلطان
 مادى، أى حكومى أو بوليسى ، حتى يستنبط قواه الروحية المستقلة
 ويصل إلى القلوب عفواً دون مساعدة خارجية .

وهذه هى مهمة فولتير التى عاها لأوريا ، مهمة الحرية الفكرية
 وفصل الدين من الدولة .

وليس لفولتير عبرة أو دلالة واحدة لعصرنا ، وإنما له عبر ودلالات
 كثيرة ، فإننا نفهم منه أن حرية العقل وحرية العقيدة ، وحرية
 الضمير هى أئمن ما يملكه البشر .

وأن الحكومة أو الهيئة التى تنهك هذه الحريات ترتكب أفظع
 الجرائم ، وهى جريمة الحياة للروح البشرى . وعبرة أخرى نستخلصها
 من حياته هى أن الأديب ليس رجل القلم والحبر ، وتقليب الكتب واجترار
 الأقوال القديمة ، وإنما هو المكافح المبتكر الذى يشترك فى هموم البشر
 واهتمامات المفكرين دعاة التطور والرقى . وأن أدباء البرج العاجى الذين
 يقفون بعيداً عن معترك الحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية لا قيمة لهم
 ولا منفعة منهم . بل هم بمثابة الجندى الفار من المعركة .

وعبرة ثالثة هى أن بؤرة الأديب شخصيته ، من حيث إنه يكتب عن

إحساس ووجدان بما يحس ويجد . ثم يصدر عن ذلك مفكراً للتنظيم والتوجيه . ولذلك قيل إن أسلوب الكاتب هو شخصيته أو هو أخلاقه . ومن المحال أن يقنعنا كاتب فاسق بضرورة الطهارة . أو كاتب يتعلق بالمستبدين وينتفع منهم بضرورة الديمقراطية .

ولقد عشت حياتي وهنئت أيما هناء ، وتعزيت أحياناً أيما عزاء ، بمرافقة قولتير وتأمل كلماته وتتبع حياته في أخطائها وأخطارها وتطوراتها . وعرفت منه معرفة الإحساس والوجدان معاً أن حرية العقل هي قدس الأقداس في النفس البشرية .

كانت حياة قولتير كفاحاً نجح فيه ، ورد إلى الإنسان حرته بعد أن كانت قد حرمتها إياها الكنيسة والدولة . واستطاع أن يحمل جماهير أوروبا على الإيمان بالطبيعيات بدلا من الغيبيات إلى حد بعيد . كما استطاع أن يرد إلى التاريخ مكانته ، وأن يجعل للتنقيب التاريخي فضل الاهتمام إلى الحق والباطل في العقائد . ودعا إلى العقل دون العقيدة . وأكبر لذلك من شأن « بيكون » داعية التجربة و « ديكارت » داعية العقل . وكان على وجدان برسالته التاريخية من حيث إنه رائد العصر الحديد ، عصر العقل والعلم . وقد كتب في عام ١٧٦٠ إلى « هيلفيتيوس » يقول : « إن هذا القرن بدأ يرى انتصار العقل » .

ولقد عشت في هذا الوطن الأسيف ، مصر ، نحو ثلاثين سنة من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٤٩ في أسر الأحكام العرفية والرقابة القلمية ، وذلك كى يعيش المستعمرون من الإنجليز ، والمستبدون من المصريين ، وهم في تحالف لمنع الحريات عن الشعب . وقد ألفت كتابين عن الحرية هما « حرية الفكر » وهو تاريخ للأبطال الذين كافحوا التعصب والاستبداد والرجعية والجهل ، ثم « حرية العقل في مصر » وهو دعوة إلى إلغاء إدارة المطبوعات التي تمنع إصدار الجرائد والمجلات إلا بعد تأدية غرامة

مالية (في صورة تأمين) وفي كلا الكتاين أنغام تتردد من ذكرى
ثولتير .

وقد كان ثولتير يقول : « إني قايما أتعمق ، ولكنني واضح الفكرة
على الدوام » . وهذه كلمة أستطيع أن أقولها أنا أيضاً . وإذا كنت في
حياتي الأدبية قد وصلت إلى أن أختص بأسلوب ، فإني أعترف هنا بأنني
لم أقصد قط إلى هذا الهدف . وإنما كانت غايتي أن أصل إلى التعبير
الجلى الذى يوضح فكرتى . وأظن أنى نجحت فى ذلك .

وعند الفرنسيين مثل يقول : « ما ليس واضحاً ليس فرنسيّاً » .
ولهم الحق فى ذلك . وهذا الوضوح يعزى إلى التزامهم المنطق السليم الذى
تعلموه من ثولتير وأمثاله .

obeykandl.com

حيته . . .
الشخصية العالمية



المشهور عن جيته أنه أديب عظيم . وقد نقل إلى اللغة العربية من مؤلفاته قصة « آلام فرتر » ، ودرامة « فاوست » ، وله أشعار رائعة تذكر أبياتاً وقصائد ، لأن كثيراً من سطورها يحوى الحكمة العالية .

وقد كان جيته يكتب يومياته . أى أنه كان يدون الحوادث التى مرت به فى أيامه يوماً بعد يوم ، كى يحاسب نفسه على ما أنجز من أعمال . ونحن ننقل هنا يومين فى حياته كما دونهما .

• • •
فى الصباح انتهيت من المقطوعة الرابعة وأرسلتها للنسخ .
قرأت « فروسشمولزر » عن أنواع الحشرات .
تجارب فى الكهربية الجلفانية .

فى المساء مع شيلدر : أآر العقل والطبيعة فى سلوك البشر .
ثم فى الصبأح المبكر صمأحت قصيدتى . . ثم قمت بتشريأحات
الضفدع .

استراحة فى الصبأح فى حديقة شيلمر الحديدية . . . آأحدثنا عن
تأطيطها . . . وقبل ذلك أعدت النظر فى المقطوعتين الأولى والثانية .
وفى الصبأح صنعت جدولاً للألوان .

• • •

والمأمل لهذه التدوينات فى يومين من أيام آيته يحتاج إلى التساؤل :
أأديباً كان آيته أم عالماً ؟ وهذا السؤال هو موضوع بحثنا هنا .
إن عبقرية آيته لم تكن فى الأدب أو العلم أو الفن ، وإنما كانت
فى شخصيته . وصحيح أن له مآآر فى هذه الثلاثة ، ولكن مآآرته الأولى
هى شخصيته . فقد عيب عليه ذات مرة أنه لا يعنى كثيراً بموهبته فى
الشعر والأدب ، فكان جوابه : إن من آقى أن أعنى بشخصيتى ، وهى
أكبر من أدبى .

إن همّ الأديب الصغير أن يصقل قصيدة أو يحسن تأليف قصة
أو مقال ، ولكن هم آيته كان تأليف شخصيته وتربية نفسه .

وجمهور القراء يعرف أدب آيته ، ولكن قليلاً منهم من يعرفون
أبحاثه العميقة فى العلوم . فإن له مكشفات فى الجيولوجية والبيولوجية
والبصريات ، وقد سمى نوع من الصخر باسمه برهاناً على فضله فى
الجيولوجية . وكان كبير الاهتمام بأصل الأنواع : وهى المشكلة التى أرسد
« داروين » بعد ذلك حياته لحلها وقد استطاع آيته أن يكشف عن أن
المخ هو امتداد للنخاع الشوكى . ومما يذكر عنه عقب هزيمة نابليون
أنه قدم إليه نبيل ألمانى ، فسأله عن رأيه فى الزعزعة الحديدية التى تعم

أوروبا ، فأجابه النبيل بأن « الحلفاء » قد أساءوا السياسة في مؤتمراتهم وأن نابليون . . .

ولكن لم يكذ النبيل يتم جملة حتى صاح به جيته : أنا لا أسأل عن هذا . لست أبالي هذا ، إنما أسأل عن هذا الخلاف بين سانت إيلير وكوفيه ولامارك عن أصل الأنواع وتطورها .

وكان هذا الموضوع يزعزع نفس جيته ، وكان يهتم به أكثر مما كان يهتم بالسياسة الأوروبية التي زلزلها نابليون . ومن هنا اهتمامه بترتيب الحشرات وتشريح الضفدع والطاقة الكهربائية . الخ .

• • •

ومن الخطأ أن يقال إن جيته كان يهتم بالآداب والعلوم ، لأن اهتمامه الأول كان بالحياة . فكان يحب ويختبر ويسبح ويملأ المناصب الحكومية . بل إنه لم يجعل الأدب أو العلوم هدفاً ، لأن الهدف الوحيد الذي سدد إليه نشاطه هو شخصيته ، وتعبيره حين كان يقول إنه يبني « هرم » شخصيته ، يدل القارئ على أن الثقافة كانت عنده وسيلة وليست غاية .

وإذا كان لكل كاتب عظيم رسالة ، فإن رسالة جيته لم تكن الشعر أو القصة أو العلوم . وإنما كانت الشخصية باعتبارها التحفة الأولى للإنسان المثقف الذي يحيا حياة الوجدان والعقل . ومن هنا كلمة « برانديس » الأديب الدانمركي : إن حضارة الأمم تقاس بمقدار تقديرها لحجته .

والمعنى أن الأمة التي ارتقت في ثقافتها إلى المرتقى الذي تستطيع أن تفهم فيه أن رسالة الحياة هي الحياة نفسها ، هي الأمة الراقية . أما إذا كانت تجعل الحياة وسيلة لأي نشاط أو هدف آخر ، مثل الثقافة أو الصناعة أو الثراء أو غير ذلك ، فهي غير راقية . بل إننا حين نقول إن الحياة هي الهدف إنما نستوعب بهذا التعريف جميع الألوان الأخرى

للنشاط البشرى . ونستوعبها مع ذلك فى تناسق يتفق والحياة العالية .
وستبقى قيمة جيته خالدة على هذا الأساس ، وهو أننا يجب أن نحيا
حياتنا فى تعلم واختبار واستمتاع .

ولد جيته فى سنة ١٧٤٩ ومات فى سنة ١٨٣٢ . فعاصر روسو
وديدرو وفولتير ودالمبير ، هؤلاء النجوم الذين أحدثوا النهضة الأوروبية
الثانية . ثم رأى مناض العصر الحديد فى الثورة الفرنسية ، وفى شهابها
الساطع نابليون . ورأى - عقب هزيمة نابليون فى عام ١٨١٥ - المؤتمرات
الأوروبية تومئ إلى الاتحاد الأوروبى . بل لقد رأى هذه الفكرة تختمر
أيام نابليون .

أجل . إنه عاش فى عصر عاصف . ولكنه لم يترك العواصف تمر
به وهو جامد ، بل استجاب لها وتفاعل معها ، وقد درس القانون فى
الجامعة ، وعرف دوق قمار الذى أحبه وعينه وزيراً لهذه الدوقية الصغيرة .
ولم يقبل جيته هذا المنصب لما فيه من أهبة ، وإنما قبله لأنه وجد فيه وسيلة
للتدخل فى السياسة الأوروبية وفهمها . وزار إيطاليا ، فعرف فيها
جمال الشمس وجمال الفن . وتزوج . واستمتع بمسرات العائلة
كما كابد همومها . ومارس الزراعة واقتنى ضيعة ، وأشرف على المسرح ،
وأحب فتاة حباً كان يحملها على البكاء وهو فى السبعين .

وكان مفراحاً يجب الاجتماع . ولكن هذا المزاج الفرح كان أحياناً
- كما هو الشأن فيه - يحملها على الاعتزال والاعتكاف . ولكن أوقات
نشاطه وإلهامه كانت تنحصر فى أيام الفرح والاجتماع .

* * *

من علامات النضج فى الإنسان أن يميز بين المعارف والحقائق
إذ ليس كل ما نعرف حقيقياً .

وأن يجمع معارفه واختباراته في فلسفة أو دين . أى يستخرج العبرة البشرية والسلوك الأمثل مما عرف واختبر .

وأن يعتاد استخراج الكليات من الجزئيات بحيث لا يشتغل بالشجرة قدر ما يشتغل بالغابة .

وأن يحس حركة التاريخ في كل يوم من أيامه .
وأن يكون على إحساس واتصال بالدنيا ، هذه الدنيا ، وهذا الكون .

وأن يكون قد وصل بما لديه من حتماتق وبما تربى عليه من تفكير في الكليات إلى تفاؤل بمستقبل البشر .

فالرجل الناضج هو الرجل المتفائل . وتفاؤله يحمله على كفاح ما لمصلحة البشر .

والرجل الناضج متدين . يحترم الحياة .
وكي نحترم الحياة يجب أن نعمل لرقبها وتطورها إلى أعلى .
ومقياس العاؤ في التطور هو مقياس بشرى على كل حال .
وقد كان جيته يجمع كل هذه الصفات التي يتكون منها الرجل الناضج .

ومن علامات النضج في الإنسان أن يرتفع من هومه الشخصية إلى الاهتمامات العالمية .

ومن علامات النضج في الأديب أن يرفع الأدب من آراء وإحساسات تكتب إلى ممارسة في الحياة . ففن الكتابة عنده يستحيل عندئذ إلى بعض الفن في حياته هو . ومن علامات النضج أيضاً أن يتعرف الأديب إلى قوات الخير البازغة فيؤيدها وينضم إليها ويكون من جنودها أو قوادها .

وقد حقق جيته كل هذه الأنواع الثلاثة من النضج ، فإن اهتمامه بالعالم طغى على كل اهتمام شخصي آخر : نظرية التطور . قناة السويس اتحاد أوروبا . الديانات الشرقية .

وحقق الفن والحب في حياته ، فإن كلمة الحب لم تكن من كلمات التخصيص التي كان يؤلفها وإنما كانت عاطفته الغالبة التي كان يمارسها . وقد عاش في أيام الانتقال من حكم النبلاء والنظم الإقطاعية إلى حكم الصياغة والصناعيين والتجارين ، هذا الحكم الذي عمم الديمقراطية والحرية فانضم إلى هذه القوة الجديدة ودعا إلى تأييدها . بل إننا نستطيع أن نجد هذا الاتجاه في قصته « فاوست » ، بل لعل هذا الاتجاه هو التفسير الحقيقي لهذه القصة .

وهناك بالطبع من يسأل عن مذهب جيته في الحياة والأدب والحضارة . ولكننا نحن الذين أحببنا جيته لا نكسب منه معارف ، لأن معارفنا أكبر جداً من معارفه ، كما هي أكبر من معارف أرسطو طاليس أو أفلاطون وإنما نحن نكسب منه منهج الحياة الذي اتبعه ، وهو منهج التعلم والاختبار والاستمتاع .

نكسب منه الحياة الفنية ، أو كما كان يقول حرية الروح : « إن أي إنسان عرف وفهم مؤلفاتي وشخصيتي حق الفهم يضطر إلى الاعتراف بأنني قد حققت لنفسي حرية الروح » .

* * *

كيف كان يعيش جيته ؟ وكيف كان ينظر إلى نفسه ؟ أي ما مقدار وجدانه بشخصيته ؟

كان جيته يخشى الشتاء لأن النهار يقصر والليل يطول . وكان يتعب من القراءة في ضوء الشموع . وكان هو الذي يقص بنفسه فتيلة الشمعة .

وكانت آخر كلمة نطق بها قبل الوفاة : « النور » لأن النور كان عنده وسيلة التثقيف والتفكير والحياة الحيوية . ولذلك كان يحب الصيف ويكره الشتاء .

وكان يعيش نهاره كله ، فلا ينام ، أى لا يقبل . وكان يفطر في الساعة الحادية عشرة بفنجان من اللبن والشكولاتة ، ثم يتغذى في الساعة الثانية ، ثم يتنزه ، ثم يكون العشاء ، فالقراءة والدراسة .

ولما بلغ الثمانين كتب في يومياته : هل باغت الثمانين ؟ وهل يجب على ذلك ألا أتغير ، بل أعمل كل يوم مثل اليوم السابق ؟ إنى أحس كأنى اختلف عن سائر الناس وأبذل مجهوداً أكبر منهم كى أفكر كل يوم فى شىء جديد ، حتى أتجنب السأم . أجل ! يجب أن تتغير على الدوام وأن تجد شبابنا على الدوام ، وإلا تعفنا ! «

ومن أقواله فى شيخوخته أيضاً : « إنى أمتاز بالخط الحسن فى شيخوختى لأنى أجد فى ذهنى أفكاراً . لو أفى شئت أن أوالها حتى تنكشف لاحتجت إلى أن أعيش حياتى مرة أخرى » .
وكان يكتب يومياته ، وكأنه يحاسب نفسه على درجات رقيه وبناء شخصيته يوماً بعد يوم .

وكانت حياته خصبة بالحب ، ولم يكن يعرف النسك أو التقشف . ولم تكن فترات اعتكافه عن رغبة فى النسك ، وإنما هى بعض المزاج العام فى الفرحين وكأنها ادخار للقوة للانتفاع بها أيام السرور .

وكانت اختباره كثيرة واستمتاعه الإحساسية شاملة كما كانت ثقافته موسوعية لم يحصر ذهنه فى تخصص . فقد أحس الحب الحنانى وهو فى التاسعة عشرة فألف قصة « آلام قرتر » ، ثم جردها لأنها تحفل بالحنان واليأس والضعف . وكان يقوم إنه ينجل منها عندما أبتعت شخصيته

وأخذ وجدانه وتعقله مكان إحساسه وعاطفته .

• • •

بدأ جيته حياته الذهنية بتعلم القانون وتأليف قصة اليأس والموت في « آلام فرتر » وانتهى في سني نضجه وإيناعه باتجاه إيجاني بنائي للحياة البشرية فدعا إلى وحدة أوربا ، وألف قصيدة في مدح نابليون قال فيها : « إن الذي يقدر على كل شيء ، يقدر أيضاً على السلام » . ما أبدعه هنا ! وكان يفكر في قناة السويس وقناة بناما . ويشتهي أن يعيش خمسين سنة أخرى كي يراهما محفورتين مسلوكتين . ذلك أنه اتجه الوجهة العالمية ، فأصبح يقول ، كما كان يقول شيلر : « وطني هو العالم » . ولذلك صار يهتم بهندسة هذا العالم وتنظيمه كما لو كان مملكته الخاصة .

• • •

جيته هو واحد من أولئك الذين تعلمت منهم . ولم أتعلم فتناً أو أدباً أو علماً وإنما هو منهج الحياة التي عاشها جيته كان ينهي من وقت لآخر كي أعيش على مستواه .

ولست أجد في جميع مؤلفات جيته من الشعر أو القصص شيئاً عظيماً سوى القليل من اللآلي . وهو من حيث الشعر يدمن ذلك الطراز الذي يذكر له البيت الذي يتوهج بالحكمة ، ولا تذكر له القصيدة التي تعالج موضوعاً . ولذلك نحن لا ندهش ولا نتعلم كثيراً حين نقرأ مؤلفاته ، ولكننا نتعلم ونتنبه ونحس كأننا كنا نياماً ثم استيقظنا حين نقرأ حياته .

هو منهج الحياة الذي يعيد إلينا ذكر « دافنشي » الرسام المثال الجيولوجي المهندس الفيلسوف الأديب الرياضي العاشق ، الذي تعددت اهتماماته لا لأنه تعمد هذا التعدد ، وإنما لأنه نظر إلى الطبيعة النظرة

الموضوعية الموسوعية التي تثير الاستطلاع وتبهيء المشكلات الثقافية التي يشتغل بها الذهن .

وكان جيته مثل دافنشي ينظر إلى الطبيعة ، بل إلى الفنون ، هذا النظر الموضوعي . ومن هنا زاد استطلاعاه وتعددت اهتماماته ، وأصبحت ثقافته موسوعية . والحق أن الأدب لم يكن عند جيته فنيًا ، وإنما كان الفن الذي اهتم به هو فن الحياة . ثم كان الأدب جزءاً من فن الحياة .

• • •

نتعلم من جيته أن غاية الحياة هي الحياة . أي ترقية الشخصية بتربيتنا ، وبسط الآفاق أمامنا للتعلم والاختبار حتى نزداد فهماً لأنفسنا وللطبيعة ، فزداد بذلك استمتاعاً .

ونتعلم منه أننا يجب أن نؤلف شخصيتنا قبل أن نؤلف أي شيء آخر ليس هناك ما هو أهم منها عندنا . وذلك بأن نطلب الاختبارات . ولو كان الخطر فيها .

ونتعلم منه أن التخصص ضرر ، وأن الآفاق للثقافة لا حد لها . فيجب أن ندرس الأدب كما ندرس الكيمياء والتقنية الذرية ، بل كما ندرس جنون الشيزوفرانيا وقوانين الوراثة .

ونتعلم منه أننا يجب أن نشترى الاختبارات إذا لم تصادفنا . فنقرأ ونسبح ونحب ونمارس السياسة ونختلط بالمجتمع ونشتغل بتربيته .

ونتعلم منه أننا - حتى في الشيخوخة - يجب أن نستبقى شباب الذهن والعاطفة . ولن يكون هذا إلا بتهيئة سابقة . وأخيراً نتعلم منه أننا أبناء هذا الوطن الكبير : العالم .

• • •

قلنا إننا لا نكسب من جيته معارف ، وإنما ننتفع به من حيث أسلوب حياته : حياة فلسفية تتغذى بالثقافة وتهدف إلى تربية الشخصية

بالنمو الذى يستحيل إلى نضج .

ولكننا مع ذلك نجد أن لجيته عبرته ودلالته فى الموقف الثماني الأوربي بين عامي ١٨٠٠ و ١٨٢٩ .

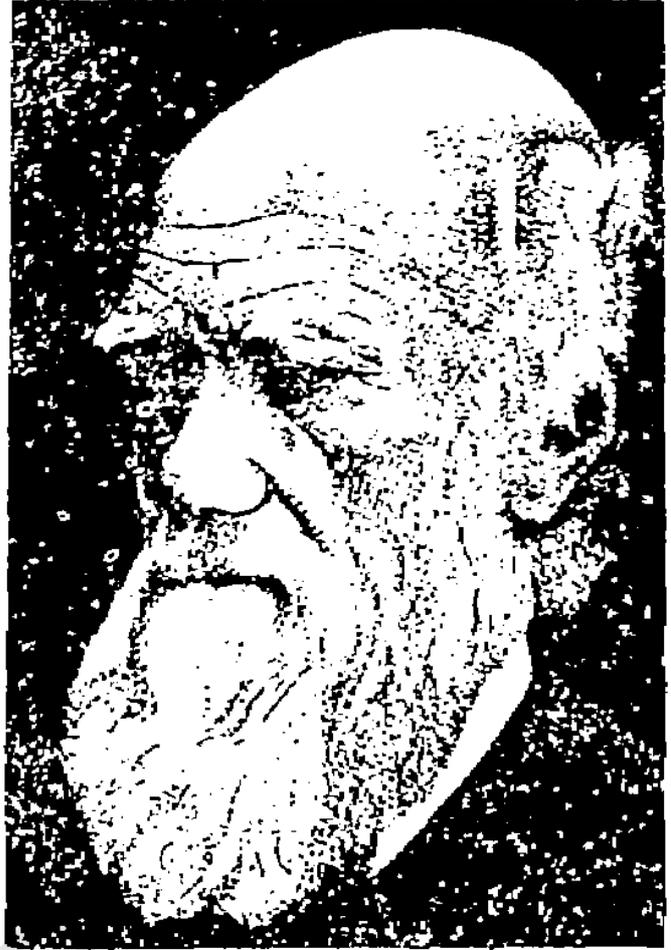
ذلك أن المذهب الانفصالي كان لا يزال قائماً بين النفس والجسم أو العقل والمادة . وداعية هذا المذهب الثنوي هو أفلاطون الذى فصل بين الفكرة والمادة . وقد أيدت العقائد الدينية هذا الانفصال ، ولكن جيته رأى غير ذلك . بل ربما كان هو أول أديب دعا إلى الوحدة الوجودية فى أوربا ، أى أن الجماد والنبات والحيوان والإنسان والمادة والعقل كلها شىء واحد . وأن الإنسان ليس مخلوقاً منفصلاً وإنما هو تعبير خاص للطبيعة العامة التى فى الجماد والحيوان والنبات ، وأن الحقيقة الأولى فى هذا العالم هى التغير والاستحالة . فالطبيعة دائبة فى التغير والتشكل بأشكال مختلفة . وأن الفكر البشرى نفسه قد نبع من الطينة التى نبضت بالحياة الأولى .

وقد قال ذات مرة إن أعظم ما يصبو إليه أن يهتدى إلى قانون شامل عام تنتظم به التغيرات والاستحالات فى الجماد والنبات والحيوان والإنسان .

ولو كان جيته يعيش فى عصرنا لعبر عن هذه الشهوة بأنه ينشد التفسير الدرى للجماد والحياة والفكر البشرى والماء السائل .

وهذا هو ما نشده جميعاً ونوشك أن نهتدى إليه .

داروين . . . عار العائلة



« أنت لا تعنى إلا بصيد الكلاب ، واقتناص الجرذان ، وسوف تكون عاراً على نفسك وعلى عائلتك » .

هذه هي الكلمات التي تلقاها داروين من أبيه في وقت كان يلوح لأي إنسان يتأمل داروين أنها صحيحة ، وأن هذا الشاب قد خاب الخيبة التامة . فقد تسكع في دراسات مختلفة ، ولكنه لم يستقر على واحدة منها . فقد التحق بكلية الدين ثم تركها ، والتحق بكلية الطب ثم تركها . وفي غضون ذلك كان يلعب ، أو على الأقل كان يبدو كأنه يلعب . يخرج إلى الحقول ويجمع النباتات ويصيد الحشرات ويقارن بين الأحياء ، ويفكر تفكيراً سرياً كأنه يتأمر على الكون كله ، كي يغيره أو يغير البصيرة البشرية فيه .

والآن بعد أكثر من مائة سنة من هذه الكلمات القاسية التي قالها أبوه عنه لا يعد داروين عاراً على عائلته . بل هو فخر أمته يتباهى به التاريخ الإنجائزي . وبعد نحو خمسين سنة من هذا التوبيخ الأبوي تأمل داروين حياته الماضية . ومباغ ما آتته من الخدمة في التوجيه الذهني للعالم فقال : « أظن أن أبي قد قسا على بعض القسوة » .

ومات داروين في عام ١٨٨٢ بعد كفاح ثقافي طويل ، ونحن الآن بعد وفاته بأكثر من نصف قرن . نستطيع أن نقول إنه أكسبنا فهماً جديداً للطبيعة والكون والإنسان . وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل . فإن كتابه « أصل الأنواع » الذي أخرجه في عام ١٨٥٩ حمل إلى القراء شيئين : أولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع في الحيوان والنبات . وأنها جميعها ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة . وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف في الطبيعة . وأن الإنسان والحيوان والنبات في تغير مستمر .

ونحن الآن لا نبالى الحقائق أو المعارف التي شرحها داروين لأننا نعرف أكثر منها . ولكننا قد اتجهنا الوجهة التي عيها لنا . ونحن هنا بهذه المثابة نفسها نحو أرسطوطاليس . فإننا نعرف أكثر منه من حيث الكم في المعارف . ولكنه أكسبنا المنهج . فنحن نفكر في التطور الدارويني ونفكر متطورين . وقد أصبح التطور حقيقة علمية نقيسها بالمليمتر والمليجرام في الحيوان والنبات ، كما أصبح أيضاً مذهباً دينياً . أو مبدأ أخلاقياً عند المثقفين . وانفسح به التاريخ البشري آفاقاً إلى ملايين السنين . بل مئات الملايين خلف البشر وبعد البشر .

لقد قيل إن جاليل (جاليليو) حط الإنسان من عليائه . حين أعلن أن الأرض ليست مركز الكون . وأنها كوكب صغير يدور حول الشمس . بل الشمس أيضاً نجم صغير لا يختلف عن ملايين النجوم التي

نراها كل ليلة في المساء . ولكن داروين رفع الإنسان إلى هذه العلياء من جديد ، وأثبت أنه لم يكن عالياً فسقط ، وإنما هو كان ساقطاً يعيش على حضيض الطبيعة . حيواناً كسائر الحيوانات والحشرات ، ثم ارتفع . وبهذه الكرامة الجديدة انتقل من أسر القدر ، وأحس أنه تاج التطور ، وأن له الحق في تدبير هذا العالم ، وفي تعيين السلالات القادمة . بل ماذا نقول ؟ في إيجاد البشرية الجديدة . . .

ومع ذلك لا أعتقد أن داروين نفسه ، كان يقدر الطاقة الكامنة في نظريته . ولا ينتقص هذا من عظمته ، فإن تفكيرنا الشخصي يسير بقوات اجتماعية ، لا نكاد نبصر بها أو نتعمق أصولها . ذلك أننا نفكر بحواجز من العواطف التي نكتسبها من المجتمع . بما يفرضه علينا من القيم والأوزان . وما يرسمه لنا من المطامع والآمال . والمجتمع يطالبنا باستجابات مختلفة تستحيل في كياناتنا النفسية إلى عادات عاطفية لانستطيع الخروج منها . فنفكر في منهج خاص هو ثمرة هذا التوجيه الاجتماعي الذي لا نحسه لأنه لا يرتفع إلى وجداننا وتعقلنا .

ولذلك نستطيع أن نقول إن نظرية داروين وجدت الحافز الأول على التفكير فيها من المجتمع الذي عاش فيه داروين . ذلك أن داروين قضى زهرة حياته إلى نضج الشباب وإيناع الكهولة ، فيما بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٦٠ ، وكان عمره وقتئذ بين العشرين والخمسين ، وكانت إنجلترا في تلك السنين ترغى وتزبد بالحركة الصناعية الجديدة . فالمصانع تحتشد بالعمال من الرجال والنساء والصبيان . والثروات تنمو ، والمزاحمة على أقصاها . وإنجيل النجاح يدرس بل يعبد . والسياسة تخدم الاقتصاد ، وتضرب الأمم النائية وتؤسس الأسواق والمستعمرات . وأصبحت إنجلترا سيدة البحار لأنها احتاجت إلى أكبر أسطول يحمي مستعمراتها وأسواقها التي تباع فيها مصنوعاتها الفائضة .

وعاش داروين في تنازع البقاء هذا الذي لا يفتر في لنكشير وغير لنكشير من الأقاليم الصناعية في إنجلترا .

وفي تلك السنين أيضاً قرأ كتاباً أحبه وتعلق به لأنه وجد في نفسه الاستجابة لنظرياته. بما تكون له من عواطف أحدثها الوسط الصناعي الإنجليزي ، هو كتاب القسيس « مالتوس » عن السكان . فإن هذا القسيس كان من المحافظين الإنجليز الذين يكرهون العامة ، ولا يرون فيهم سوى غوغاء . فلما انفجرت الثورة الفرنسية واستولى بها الشعب على حقوق السادة من الملوك والعظماء ، ثم أعلن رجالها مبادئ الإخاء والمساواة والحرية ، فكر مالتوس كثيراً بحافز من عواطفه ، فأخرج كتابه عن السكان ، وكان المعنى الذي قصده إليه أن هذه الآمال الفرنسية في الإخاء والمساواة والحرية لن تتحقق لأن الدنيا لا تكفي الناس الذين يتوالدون على نظام تضاعفي ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ إلخ في حين أن المحصولات لا تنتج إلا على نظام حسابي ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ إلخ . فإذا عاش الناس بلا مرض أو حرمان لم تكفهم المحصولات ، وإذن فالمرض والحرب والحرمان رحمة بالناس أو ضرورة لهم . وتأمل داروين هذا الكتاب الذي ألفه مالتوس عن المجتمع البشري فتساءل : لم لا ينطبق هذا الكلام على المجتمع النباتي والحيواني في الطبيعة ؟ فإن الطعام لا يكفي جميع الأحياء التي تتوالد أو تتكاثر بالألوف ، فهي يجب أن يزاحم بعضها بعضاً ، فتكون الحرب بينها ، أي تنازع البقاء ، كما في لنكشير ومصانعها تماماً .

وفي عام ١٨٣١ أنفذت الحكومة البريطانية سفينة « البيجل » كي تطوف حول العالم وتسبر الأعماق وتدرس الشواطئ وتقيس الأبعاد ، ولكن لماذا عمدت الحكومة البريطانية وحدها دون سائر الحكومات إلى الاهتمام بهذا الموضوع ؟ ما هي العاطفة الحافزة إلى هذه الدراسة التي لم تفكر فيها ألمانيا أو روسيا أو إيطاليا ؟

العاطفة الحافظة الاجتماعية أيضاً . وذلك أن الحكومة البريطانية في تلك السنين كانت تخدم الصناعات البريطانية : لأن السياسة على الدوام تسير خلف الاقتصاد ، وكانت أسواق العالم وفقاً على المصنوعات الإنجليزية . لأن الحركة الصناعية الإنجليزية سبقت الحركات الأخرى في جميع الأمم . فمن هنا كان الاهتمام بالبحار والملاحة والأقطار النائية ، ومن هنا أيضاً كانت الفرصة لداروين في أن يلتحق بالسفينة « بيجل » كي يدرس الحيوان والنبات .

ولم يكن داروين جديداً في هذا البحث : أصل الأنواع . فإن لامارك الفرنسي سبقه إليه . وهو صاحب القول بأن عنق الزرافة قد طال لأنها . بالمرانة التي ورثت جيلاً بعد جيل . قد اشتربت وسعت للوصول إلى الغصون العليا في الأشجار . فكأن ما يكسبه الحيوان بجهد من صفات يورث جيلاً بعد جيل . بل إن جد داروين قد بحث هذا الموضوع ، فكانت النظرية « في الهواء » تحتاج إلى من يرتب أصولها وفروعها ويعمل مظاهرها . بل كانت أكثر من ذلك . فإن جيته الأديب الألماني كان يشتغل بها ويسأل عنها . وكان يتابع النقاش الحامي بين كوفييه الذي كان يقول بثبات الأحياء . وبين سانت هيلير الذي كان يقول بتحوذا .

كان داروين شاباً في الثالثة والعشرين حين شرع في رحلته على البيجل . فلما وصل إلى أمريكا الجنوبية ، وجد حيوانها ونباتها يختلفان عما هما في القارات القديمة . ثم لما وصل إلى الجزر المنعزلة غرب أمريكا الجنوبية وجد أن انعزال الجزيرة يؤدي إلى انعزال الحيوان ، فتكون له أشكاله التي ينفرد بها من الأشكال العامة على القارات .

وإلى هنا يكاد يتوهم القارئ أنه ليس هناك أي فضل لداروين في تعليل النظرية . فقد سبقه إليها جده كما سبقه إليها لامارك الفرنسي .

ثم هناك الظروف الأخرى : «التوس وقلّة الإنتاج الغذائي إزاء تضاعف السكان . ثم تنازع البقاء وبقاء الأصلح وفناء الضعيف في المزاوجة العنيفة في لانكشير حيث الحركة الصناعية في عنفوانها .

ولكن لا ! لأننا مع التسليم بأن الوسط الاجتماعي أو البيئة الثقافية . في أوسع معانيها . حين تشمل المعيشة والاتجاه أو العادات والعواطف ، هي الحافز للتفكير . فإننا مع ذلك يجب ألا نغفل الشخصية . إذ لو لم يكن داروين ذكياً لما فكر في هذا الموضوع الخطير ، ولما جعله هدفه في الحياة .

لقد قال داروين عن نفسه : « إن الحقائق تضطرنني إلى الاعتراف بأن عقلي لم يخلق للتفكير » .

ولكن داروين ظلم نفسه في تواضعه بهذه الكلمات . لأن الحقيقة أنه لم يعرف نفسه . إذ أن الواقع أنه لا يقول هذه الكلمات إلا رجل مفكر قد أسرف في التفكير وعن العناية الكبرى بغربة الحقائق من المعارف . وعرف الصعوبة الكبرى في هذا الجهد . ولو أنه لم يكن يجهد لما قال هذه الكلمات ، إذ أنها ما كانت لتخطر في باله .

الحقيقة الواضحة من حياة داروين أنه احترف التفكير . وأنه كان مريضاً أو متمرصاً ، في نفسه حزازة قديمة هي جرح الكرامة . هذا الجرح الذي أحدثه أبوه وعيَّره به كما نرى مثلاً من وصف أبيه له بأنه سوف يكون عاراً لعائلته . فقد كان لا ينام في الليل إلا بعد أرق الساعات . وكان في هذه الساعات يفكر ويؤلف . فإذا جاء النهار كتب كلماته القليلة . ثم يبتني سائر نهاره مريضاً . ومرضه هو هذا المرض النفسي الذي يخترعه النيوروزي ويعيش به ويستقر عليه ، كأنه يقول : طلبتم مني النجاح والتفوق . وكيف أستطيع هذا وأنا مريض ؟

مرض يصون الكرامة المخروجة (أنت عار لعائلتك) وفي الوقت

نفسه يهيئ الفرصة للتفكير في حضارة ليلية يسميها الأصحاء أرقاً . ولو أن داروين نجح وصار قسيساً أو طبيباً كما كان يشتهي أبوه لكسب العالم قسيساً أو طبيباً يمارس حرفته ويكسب منها . ولكن العالم كان يخسر عندئذ هذه العبقرية المرضية التي زعزعت الثقافة العالمية من أساسها ، بل زلزلتها . وعينت أهدافاً جديدة للإنسان : وأكسبته بصيرة جديدة لرؤية الماضي ورؤيا المستقبل .

لقد بقي داروين نحو ثلاثين سنة وهو يفكر في التطور ، ولكنه لا يخرج كتاباً عنه ولا يكتب مقالا . ثم حدث حادث أزعجه فانتفض منه . هو أن « وولاس » كان في بعض الجزر التي تقع في الجنوب الشرقي من آسيا يجمع الأزهار والحشرات ويحفظها ويبيع بها إلى الجمعيات العلمية . وكان مشغولا بالموضوع نفسه ، أي التطور . وكان يعرف أن داروين مشغول به أيضاً . فأرسل إليه رسالة علمية يشرح فيها رأيه في هذا الموضوع . وصعق داروين إذ وجد أن وولاس قد سبقه إلى تحليل التطور بأن الطعام قليل في الطبيعة ، وأن التوالد كثير بين أنواع الحيوان والنبات . فلا بد أن يكون هناك تزاحم أي مسابقة من أجل الطعام ، وفي هذا التزاحم أو المسابقة لا يبقى غير الأقوى الأصحح للبقاء حين يموت العاجز الضعيف وينقرض .

وسارع داروين إلى إبلاغ الهيئات العلمية في إنجلترا عن رسالة وولاس . وشرع هو أيضاً يؤلف كتابه « أصل الأنواع » . ونستطيع أن نتخيل داروين في حزنه ونزاهته معاً . ولكن وولاس بعد ذلك بسنين اعترف بأن العالم كسب ولم يخسر بتزعم داروين لهذه النظرية . لأنه كان أوفى منه معرفة وأنصح بيانا وأدق منطقاً .

وأخرج داروين كتابه « أصل الأنواع » في عام ١٨٥٩ فتغيرت الرؤية والرؤيا البشريتان .

وكثير من النظريات التي غيرت التفكير البشرى تبدو غاية في السهولة والبساطة ، حتى ليتساءل الناس : كيف جهل السالفون هذه النظرية على وضوحها ؟

فإن داروين يتحدث عن الحمام والكلاب وغيرهما مما يربيه الناس ، وكيف استطاعوا أن يخاقموا العشرات والمئات من السلالات الجديدة وما استطاعه الإنسان في مئات السنين القليلة قد استطاعته ، وأكثر منه الطبيعة في ملايين السنين الماضية . حتى أخرجت الأنواع فضلاً عن السلالات فهناك ، في الغابات والبحار والسهول ، إنتاج محدود من الطعام . ولكن هناك توالداً يتضاعف بين الحيوان والنبات . ولا يمكن أن يكفي الطعام هذه الملايين بل الملايين الملايين من النبات والحيوان . فلا بد إذن من أن تتنازع الأفراد لأجل البقاء ، أى لأجل الحصول على الطعام . وقد يكون السبب للتفوق في هذا التنارع ثم البقاء خفيفاً . هو كما في النفس الأخير ، في الثواني القليلة ، في صراع يدوم الساعات ، أو في القدرة على الجوع أو العطش ، أو في طرق الحماية للنسل ، أو في القدرة على التطفل ، أو في الجراءة والبطش .

وما دام كل فرد يولد مختلفاً عن الآخر في الحيوان والنبات ، فإن هذا الاختلاف ينطوي بلا شك على ميزة أو عجز . فهو يساعد في الحال الأولى على البقاء والانتصار في معركة الحياة . وهو يهيئ الهزيمة في الحال الثانية . ولا نعرف الأسباب لهذا الاختلاف ، ولكننا نشاهده ونسلم به . ولذلك لا بد أن يستمر التغير جيلاً بعد جيل . فإذا تراكت التغيرات أحدثت السلالات الجديدة . وإذا زاد الاختلاف بين السلالات ظهرت الأنواع الجديدة .

وعلى هذا يجب أن نسلم بأن الأحياء ، نباتاً وحيواناً ، ليست الآن كما كانت قبل مليون أو مائة مليون سنة . لأن التغير والتطور هما طبيعتهما

ونستطيع أن نستنتج أنه مادام لنا تاريخ ماضٍ في التطور فسوف يكون لنا تاريخ قادم أيضاً تتغير فيه الأحياء .

وهذه هي الدلالة الخطيرة التي انتهى إليها قراء داروين ، وهي أن الحياة في بوتقة لم تتجمد قط . وأن البوتقة لا تزال تصهر وتخرج عناصرها مركباتها . وهذا هو التوجيه الحديد الذي سدّد داروين عقولنا إليه ونحن في بداية هذا ، هو التوجيه الذي يخشى كثير منا دلالاته لأنه يحمل في طياته مشروعات بشرية خطيرة . ولأنه يضع النظام المادي للإنسان والحيوان والنبات مكان النظام الغيبي .

لقد عالج داروين تطور الأحياء ، وحاول تعليل التطور ، ونجح إلى حد ما في هذا التعليل ، ولكنه لم ينجح كل النجاح . وذلك لأن عواطفه الاجتماعية التي اكتسبها من المزاخمة الصناعية التجارية في لنكشير ، ومن كفاح الإمبراطورية لخطف الأسواق وإذلال الأمم ، هذه العواطف هي التي حملته على أن يكبر من شأن التنازع ، تنازع البقاء . وحال هذا بينه وبين رؤية التعاون في الطبيعة ، لأن الواقع أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع .

ونحن نعرف الآن كثيراً ، أي أكثر مما كان يعرف داروين ، ولكن لداروين فضل التوجيه وتعيين الخطط للبحث . وأنه زودنا برؤيا بشرية جديدة وأطلق أذهاننا من أغلال العقيدة إلى حرية البحث والدرس . فقد نقلت نظرية التطور من الأحياء في الطبيعة إلى الناس في المجتمع ، وصار من المؤلف أن نجد دراسات منظمة عن الأخلاق والأديان وفق النظرية التطورية ما كنا لنراها لولا داروين . وانبسطت للبشر آمال في المستقبل ، وتغير معنى الارتقاء البشري لأننا نقلنا هذا المعنى من وسط الإنسان إلى الإنسان نفسه . كما أصبح التطور فناً نمارسه في إيجاد

سلالات جديدة من القطن أو القمح أو الفاكهة ، وقد اجترأ هتلر وأعوانه على أن يفكروا في سلالات بشرية جديدة .

ويجب ألا يعمينا الاستغراض الديمقراطي عن هذا الابتكار النازي الذي دعا إليه هتلر . فإن نظرية التطور لا بد أن تخرج من التفكير إلى التطبيق . . . بل هي كذلك الآن ، ومنذ مئات السنين في حيواناتنا ونباتاتنا ، ونقلها إلى النوع البشري لن يعدو وثبة كبيرة .

• • •

أراني بعد كتابة ما تقدم أتى التفت إلى شخصية داروين وتحليلها أكثر مما التفت إلى تحليل نظريته ودلالاتها . ولذلك أحتاج إلى الإشارة إلى التفتيحات التي طرأت على هذه النظرية . وأولها وآخرها هو الرجوع إلى لامارك : « إن الصفات المكتسبة تورث » . وداروين نفسه لم ينكر هذه الوراثة ولكنه لم يبرزها كما أبرز « تنازع البقاء وبقاء الأصلح » . ومع أن داروين التفت كثيراً إلى الدواجن ، وكيف أن الإنسان استطاع أن يخرج مئات السلالات من الحمام والدجاج والكلاب والحيول ، ومع أنه نقل هذا المنطق من الإنسان إلى الغابة ، باعتبار أن تنازع البقاء يحى ويبيد ، ويقف من النبات والحيوان موقف الإنسان في اختيار الصفات التي تعمل لبقاء الأفراد ، فإن الموقف البيولوجي ينكر هذه الأيام قيمة هذه المقارنة بين التنوع في الدواجن والتنوع في الأوباد . ذلك لأن المشاهدة تثبت أن التنوع في الطبيعة قليل جداً أو يكاد يكون معدوماً ، كما يثبت أن ما أحدثناه نحن البشر من التنوع في الدواجن إنما هو عن بعيد مصلحة هذه الدواجن . وهو أشبه بالمرض منه بالصحة وقد أحدثناه بحياة غير طبيعية لهذه الدواجن .

ولذلك نحن ننزع هذه الأيام إلى « داروينية جديدة » تعتمد على أن عادات الآباء يرثها الأبناء حتى إذا تراكت أوجدت العضو الذي

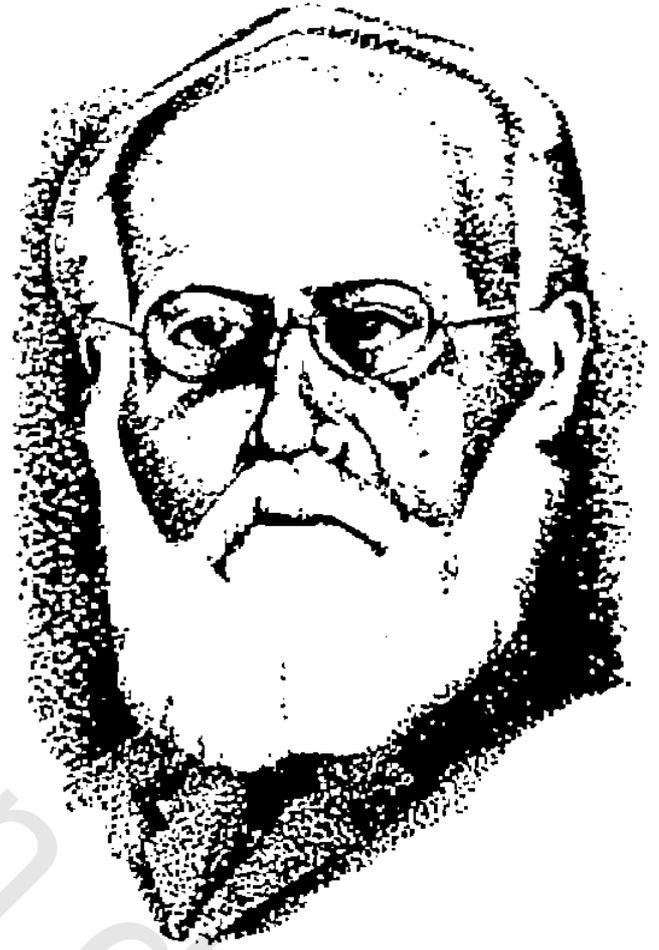
يؤديها . كالجمل الذي عاش في الصحراء وكان يحتاج إلى أن يبرك على
الحصا الذي يجرح جانده . فتضخم الجملد في أمكنة الملامسة وأصبحت
هذه الخاصة وراثية . وكاللجاة (التي كانت مثل اللاحف على اليابسة)
احتاجت إلى السمك طعاماً فنزلت إلى البحر . ومازالت تمارس السباحة
حتى استحالت يداها إلى زعنفتين . . إلخ .

• • •

ولا أعرف كاتباً تأثرت منه أكثر مما تأثرت من داروين . فإنه
أعطاني القاب الذي أزن به أحياناً . وأحياناً أهدم به التقاليد . وجعل
التطور مزاجاً تفكيرياً ونفسياً عندي ، بل جعله عقيدتي البشرية التي
تنأى عن الغيبيات . وقد أصبحت أقيس الأمم بمقدار تطورهما ، وأقيس
آمالى الاجتماعية بمقدار ما أجد من قدرة على التطور . ذلك أن التطور
في أساسه منطق علمي ، ولكنه قد استحال عندي إلى عقيدة قلبية .
وإذن يجب أن أعد داروين المعلم الأول الذي علمني .

obeykanda.com





فيسمان . . . المؤلف الذي أفسد ذهنى

أفسد ذهنى نحو أربعين سنة ، بل لعله أفسد أخلاقى أيضاً من حيث أنه غرس فى نفسى فلسفة اجتماعية خاطئة . فجفت عندى ينابيع السخاء البشرى ، وتولدت عندى نظريات بشأن تنازع البقاء ما كنت لأومن بها لولا هذا المؤلف الألمانى المدعو « فيسمان » . ذلك أنى كنت فى الأول من هذا القرن مشغول الذهن بنظرية داروين عن تنازع البقاء وبقاء الأصلح . وكانت هذه النظرية فى ذلك الوقت هى ، عند جميع المفكرين ، علة التطور . فإن أوروبا المثقفة كانت قد سلمت بأن الأحياء تتغير وتتطور ، وأنها تعود كلها إلى أصل واحد ، ولكن كان هناك خلاف بشأن العلة أو السبب لهذا التطور . . .

وكان لامارك ، قبل داروين ، قد علل التطور بالعادات . أى أن

الحى عندما يتغير وسطه الذى يعيش فيه ، سواء أكان ذلك بتغيير المناخ أم الطعام أم الأعداء . هذا الحى يتعود عادات جديدة تلاءم هذا الوسط الجديد . ويتغير بذلك جسمه بعض الشيء ، ثم يأتى نسله فيرث شيئاً من هذا التغيير . ثم تتراكم التغييرات على مدى الأجيال المتعاقبة بالمئات والألوف فتظهر سلالات جديدة تختلف من أسلافها . ثم تتراكم هذه التغييرات فى هذه السلالات حتى تفصل ما بينها وبين الأسلاف . وتعود السلالات القريبة أنواعاً مستقاة منفصلة .

هذا ما كان يعمل به لامارك التغييرات التى تؤدى إلى التطور . وقد سلم داروين - إلى حد ما - بهذا التعليل ، ولكنه لم يقصر التغييرات التطورية عليه ، بل اعتمد على ماسماه « تنازع البقاء » . والقارىء لمؤلفاته يفهم أن التغييرات تحدث لأسباب نجهلها ، ولكنها تورث فإذا كانت الصفة المورثة حسنة فإنها تؤدى إلى انتصار الفرد المتصف بها من الحيوان أو النبات فى تنازع البقاء ، أى فى مباراته لغيره من نوعه أو الأنواع الأخرى ، ولكن مع كل ما قاله داروين هنا يجب أن نذكر أنه قال إن تأثير الوسط فى الحى لم يدرس الدراسة الكافية ، وبذلك ترك الباب مفتوحاً للشك والبحث شأن الباحث العلمى المنصف .

وفى ما بين سنة ١٩٠٠ سنة ١٩١٠ كان النقاش يدور حول الصفات المكتسبة ، أى العادات ، أتورث أم لا تورث ؟ ولزيادة الإيضاح نقول : هل طال عنق الزرافة لأنها تعودت مد هذا العنق إلى الغصون العليا من الأشجار أو الأعشاب السفلى على الأرض ، ثم أورثت ذريتها هذه العادة حتى طالت أعناقها ؟ أم أن هناك سبباً أو أسباباً أخرى لهذا الطول ؟ والمعقول الذى يسلم به المفكر لأول وهلة أنه لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر لهذا التغيير والتطور سوى الذى كانت تعيش فيه الزرافة . أى أنه إذا لم يتغير الوسط ، ويؤدى تغييره إلى أن يغير

الحى عاداته ، فلن يكون هناك سبب ما للتغير والتطور . ومعنى هذا أن لامارك كان مصيباً كل الإصابة في تعليقه للتطور بالمعادن التي يتعودها الفرد .

هذا هو المعقول . ولكن إذا لم يتفق المعقول مع الواقع ، وجب أن نسلم بالواقع وترضى بالنزول عن هذا المعقول . لأن ماعقلناه ربما قد خفيت عنا فيه أشياء .

ووقع في يدي حوالى سنة ١٩٠٩ كتاب يدعى « الجراثيم المنوية » للمؤلف الألماني فيسمان . وكان هذا المؤلف علمى الذهن ، لا يسأل ما هو المعقول ؟ وإنما يبحث عن الواقع الذى تثبته المشاهدة والتجربة . وقد وجد بالمشاهدة المكروسكوبية أن الجراثيم المنوية ، أى التناسلية ، فى الحيوان مستقلة تمام الاستقلال عن الخلايا الجسمية . وهى تسكن فى أجسامنا وتتغذى من دمائنا ؛ ولكنها لا تتأثر بحياتنا أقل التأثير . ونحن نتسلم هذه الجراثيم من آبائنا ونسلمها لأبنائنا . وهؤلاء يسلمونها للأحفاد دون أن تتأثر بالأجسام التى التصقت بها وعاشت عليها .

وقد وصل فيسمان إلى هذه النتيجة بالمشاهدة . فإن الجنين فى أولى ساعات تكوينه يتألف من خليتين : إحداهما خلية تناسلية والأخرى خلية جسمية . والأولى تبقى راکدة لا تنمو إلا عند المراهقة ، حين تنشط وتتكاثر . أما الثانية فتتكاثر منذ الساعات الأولى لتكون الجنين . وهى التى يبنى منها الإنسان أو الحيوان أو النبات .

وإذن فهما تغير الوسط من البرد إلى الحر ، أو من السهل إلى الجبل ، أو من الرطوبة إلى الجفاف ، ومهما تغير الغذاء من النبات إلى الحيوان أو العكس ، ومهما تغيرت حركات الجسم بالعمل والكفاح ، ومهما تغير نشاط العقل بالدراسة أو عدمها ، ومهما تغيرت عاداتنا السلوكية ،

فإن الجراثيم المنوية التي تسلمناها من جدودنا وأسلافنا سنسلمها لأبنائنا وأحفادنا كما هي دون أن تتأثر بما تأثرت به أجسامنا نحن . ولذلك ليس في ترقية الوسط أية ترقية للإنسان . لأن التفاوت في الكفايات لا يعود إلى تفاوت في الوسط ، وإنما إلى تفاوت في الوراثة ، هذه الوراثة التي لا نعرف في زعم فيسمان كيف تؤثر فيها أو تغيرها .

وقد كافح هربرت سبنسر هذا القول ، وكانت عباراته : « إذا لم يكن الوسط سبباً لتغير الأنواع فلا أعرف سبباً آخر للتطور » . ومع أن هذه الكلمات ينادى بل يصيح بها المنطق والتفكير السلم فإنني لم أستطع إلا التسليم بما قاله فيسمان ، لأنه قائم على المشاهدة التي هي بينة العلم .

ثم عرفت بعد ذلك تجارب الراهب « مندل » ، التي كان قد أجراها في القرن الماضي في اللوبيا أو الفاصوليا وبعض الحبوب الأخرى ، و« أثبت » أن الوراثة صارمة . وأنها تجري على أرقام معينة كأنها لا تتأثر بالوسط بتاتاً . وانتهيت أنا إلى الإيمان بهذه الوراثة الجامدة ، وبأن الوسط لا قيمة له أصلاً في تغير السلالات وتطورها . ذلك لأني اعتمدت على ما كان يقوله الثقات . ولست أنا ثقة مجرباً في هذه العلوم ، فيجب أن أقبل ما يقوله المجربون .

ولكن بقي التطور عندي بلا تعليل لأني أخرجت منه تأثير الوسط .

لا ، بقي شيء واحد هو تنازع البقاء أي يجب أن نسلم بأن الأفراد من الحيوان والنبات والإنسان تتفاوت في الكفايات ، ونحن — مع أننا نجهل المصدر لهذا التفاوت — مضطرون إلى التسليم به . إذ هو واقع يشاهد ، وإن كان هذا التسليم يشبه التسليم بالغيبيات التي لا تعلل أو بالقدر الذي لا يحتسب .

وكان لهذه العقيدة مركبات نفسية عندى تتلوهها مركبات اجتماعية . ذلك أن تنازع البقاء في الطبيعة يجب أن يكون له صدى في مجتمعنا ، كأن نقتل العاجز العليل أو نتركه يموت دون أن نعمل على شفائه . فهؤلاء العاجزون عن التفوق يستحقون تخلفهم ، وليس من الواجب علينا أن نساعدهم على أن يرتقوا، لأنهم إنما ولدوا وارثين لهذا العجز الذي يصلحه الوسط . ثم لماذا يبقى هؤلاء الأزواج أحياء مادامت هناك شعوب أرق منهم ؟ وما دام إصلاحهم بإصلاح الوسط غير ممكن لأنه غير علمي ؟ فزوالهم إذن خير من بقائهم . وفي هذا القول بالوراثة تليل علمي ، وتسويغ اجتماعي ، للاستعمار والاستغلال ، لأن الأقوياء بالوراثة هم الذين يستعمرون ويستغلون الضعفاء بالوراثة . وقد التهمت نيتشه الهاماً لأنه كان يدعو إلى إبادة الضعفاء . ومضت على سنوات كنت أحس عندما أرى إنساناً يتصدق على سائل بقرش أنه جنى على المجتمع وأفسد الأجيال القادمة . لأنه بهذا الإحسان قد استبقى الضعف واستولده .

ولكن يجب أن أعترف أني لم أسلم كل التسليم بأن الطبيعة كافرة إلى هذا الحد . ولكني كنت أقف متردداً ، أكاد أحبس نفسي عن السخاء والحنان والبرقة العطف . وكنت أظن أني بذلك قد أصبحت « علمياً » . وذلك أني كنت على الدوام أهجس بالهاجس الفلسفي المنطقي ، وهو أنه ليس هناك سبب لتغير الحيوان أو النبات سوى تغير الوسط ، أي أن عادات الفرد في حياته ، وصفاته التي اكتسبها من هذه العادات ، ترثها أعقابه ثم تتراكم وتنبور حتى تصير صفات جسمية أو غريزة جديدة .

وأخيراً التفت إلى الهورمونات الجنسية ، تلك المركبات التي تفرزها الخصيتان في الرجل والمبيضان في المرأة وتؤثر في قوام الجسم وشكله بحيث

يتغير شكل الجسم حين تقطعها (كما نرى في الحصيان) فرأيت أنه ليس من المعقول أن تؤثر هذه الجراثيم المنوية في أجسامنا دون أن تتأثر هي بأجسامنا .

وقرأت بعد ذلك كتاباً للأستاذ «وود جونس» عنوانه « العادة والوراثة » أوضح فيه أن العادات التي يتعودها الحيوان بل الإنسان تنهى إلى أن تكون وراثية . وقد ذكر حقيقة كبيرة القيمة جداً تنقض ما قاله فيسمان من أن خلايا الجسم تنفصل من خلايا الجرثومة المنوية . وهى أن الرحم قد نزعت من بعض الفيران والأرانب فعادت إلى النمو . بل ذكر أن مثل هذا قد حدث لبعض النسوة اللاتي نزعت أرحامهن . وبذلك أثبت أن نزع الجرثومة المنوية من جسم الفأر والأرنب والمرأة ، وهى الجرثومة التى ينمو فيها الرحم هذا النزع والحمو لا يمنعان الجسم من إنماء جرثومة أخرى . وإذا كان الأمر كذلك فإن تأثير الجراثيم المنوية فى الذكر والأنثى بخلايا الجسم لا يترك مجالاً للشك . ومن هنا يجب أن نسلم بأن الصفات المكتسبة ، أى العادات التى يتعودها الجسم ، تتأثر بها الجراثيم المنوية فتعود هذه العادات وراثية .

وقد ذكر فيسمان أنه قطع أذنان الفيران لعدة أجيال فلم يستطع إيجاد سلالة من الفيران خالية من الأذنان . ثم ضرب مثلاً بالختان عند اليهود فقال : إنهم على الرغم من ممارسة هذه العادة أكثر من ثلاثة آلاف سنة لا يزال أطفالهم يولدون وهم غلف لم يتأثروا بالختان .

ولكن هذين المثليين لا يدلان على أن فيسمان كان بصيراً بمعنى التطور . فإن قطع أذنان الفيران وختان اليهود لا يزيد فى دلالته على ما نفعل نحن عندما نقص شعور رعوسنا ، إذ ليست هذه الأعمال عادات .

ذلك أن معنى العادة أكبر من هذه الأمثلة . فالحيوان يتعود العادة

لأنها تنفعه : فهو يجد أولاً متكلفاً جاهدأ حتى تسهل عليه بالمرانة ، ثم تصير المرانة عادة يؤديها وهو لا يكاد يلتفت إليها . كعازف الكمان ، يبدأ متعلماً متعزراً متكلفاً ثم ينتهي بالمرانة إلى أن يعزف وهو يتحدث إليك لا يلتفت إلى الأوتار .

وهكذا الشأن في الزرافة . حين كانت قصيرة العنق تمده إلى الأغصان فتشد عضلاته ، أي تمطها . ثم تكرر هذا بالمرانة حتى صارت العضلات تطول بالوراثة . وهذا هو الشأن في ثفنيات الحمل ، أي تلك الأجزاء المتجلدة الحشنة التي تلاصق الرمل عندما يبرك ، فإننا نعرف أن أقدامنا تتجلد وتخشن عندما نمشي على سطح خشن ، أو عندما يضيق علينا الحذاء . والإخشيشان في ثفة الحمل هو عادة نشأت من مقاومة الجسم للرمل الخشن ، ثم صارت بعد ذلك وراثية . بل هذا هو الشأن في عنق الحمل الذي يمده كى يصل إلى أعشاب الأرض .

فالزرافة والحمل احتاج كلاهما إلى خواص مكتسبة ، صارت بعد ذلك موروثية ، لأنها نافعة . أما قطع ذنب الفأر ، وختان اليهود ، وقص شعورنا ، فليس منها أية منفعة لنا ولسنا نجهد في تعودها . ولذلك ليس هناك ما يدعو إلى أن تكون وراثية .

• • •

ثم عدت إلى قواعد مندل في الوراثة فوجدت أنها ليست محكمة ، أي ليست علمية ، حتى أصبح المندليون أنفسهم يقولون إن هناك شذوذاً في بعض الصفات المورثة . وهذا كلام لا يستطيع الذهن العلمي أن يسيغه لأن القاعدة العامية لا تتسع لأقل الشذوذ .

ثم انظر إلى النبات الذي استغله الإنسان لغذائه كالقمح مثلاً ، فإنه إنما نشأ في بقعة صغيرة في الأصل ، ولكنه يزرع الآن في الأقاليم

الثلجية التي تتأخم القطب الشمالى ، وفي الأقاليم الحارة بأفريقيا . وليس لهذا من سبب إلا أن القمم قد تعود مختلف الأقاليم التي زرعه الإنسان فيها ، وأورث عاداته . أى صفاته المكتسبة ، لسلالاته المختلفة .

وهكذا الشأن فى البقر الذى يعيش فى السودان الحار . وفى نروج الباردة ، مع أن الأسد لا يعيش إلا فى أواسط أفريقية لا يتجاوزها . ولو كان الأسد مدجنا كالبقرة ، ينقله الإنسان معه إلى مهاجرة البعيدة ، لكان قد تعود المناخ البارد وعاش فى نروج كما يعيش الآن فى أفريقيا .

وحيوان اليابسة الذى نزل إلى البحار مثل : القيطس والفمقة والدولفين يبين بوضوح كيف أن الوسط قد غيره ، وكيف أن سلائل هذا الحيوان قد ورثت النغير . بل إن هناك إمارات تدل على أن كفاح الحيوان للأمواج قد غير فى وضعه التشريحي .

مثال ذلك أننا عندما نسهج يكون همننا رفع الرأس حتى لا نختنق بالماء . وهذا الرفع يجعل العنق مشدوداً من الأمام منشياً إلى الخلف ، فتندفع فقره إلى الأمام فى العنق . وهذا هو ما نراه إلى الآن فى الفمقة ، فإن فقرها أقرب إلى نحرها منها إلى قفاها .

وقد كان « بوربانك » الأمريكى يطعم الأشجار بغصون من أشجار أخرى فكان يجد الفواكه التي تنشأ على هذه الغصون تكتسب صفات جديدة من الشجرة الظئر أى الأم ، ثم تورث سلائلها هذه الصفات . مع أن الغصن لم يأخذ من الشجرة سوى الغذاء ، وهو بعض الوسط . وهذا الذى حققه بوربانك قد حققه أيضاً « ليسنكو » على أبعاد كبيرة . الغصن يؤثر فى الشجرة الظئر ، والشجرة الظئر تؤثر فى الغصن .

وهذا الفهم الجديد بشأن الوراثة والوسط قد عاد فأحدث لى مركبات نفسية واجتماعية أخرى . وأكسبني فهما آخر للتطور . وهو أن داروين

قد أخطأ خطأ فادحاً عندما زعم أن «تنازع البقاء» هو كل شيء أو يكاد يكون كذلك . وإن كان فهمه لتنازع البقاء ليس ساذجاً أو ليس محض القوة والعداوة كما يتوهم الآري . وشرعت أبصر أن التعاون في الطبيعة أكبر أثراً من التنازع . بل لا يكاد يكون هناك تنازع في عالم الحيوان بالمعنى البشرى الذى تفهمه من هذه الكلمة . فالأسد لا يقتل الأسد ، والحروف لا يقتل الحروف . وقد يكون هناك صراع دموى بشأن الأنثى ، ولكنه لا ينتهى بالموت فى كل حال . ثم هو صراع قصير الأجل . أما الإنسان فيقتل الإنسان بالملايين ، لا بمحض طبيعته ولكن باتجاه حضارته ، أو بما نشأ عليه من عواطف اجتماعية .

ونحن نخطئ خطأ كبيراً حين ننقل هذا المعنى المتوحش لتنازع البقاء من مجتمعنا إلى الحيوان فى الغابة ، لأن الطبيعة ليست كما قال «هكسلى» أو غيره وهو متأثر بداروين : «حمراء بين الناب والمخلب» .

وهذا الفهم الجديد للتطور يحملنا على الإكبار من شأن الوسط البشرى وضرورة ترقيته حضارياً وثقافياً ، لأن العادات التى يتعودها الإنسان بكفاحه لمصاعب الوسط سوف تنتقل كما لو كانت غرائز إلى الأجيال القادمة . وليس ما نسميه غرائز طبيعية سوى عادات تباورت بتعاقب الأجيال .

والدلالة الأخلاقية لهذا النظر الجديد هى أننا إذا تركنا الناس أو بعض الفئات تعيش فى عادات سيئة ، فإننا سوف نرى السوء لا يقتصر على الجيل القائم ، بل ينتقل إلى الأجيال القادمة بالوراثة .

والوراثة فى جمودها الذى اعتقده فيسبان تشبه القدر ، لأننا نعجز عن تغييرها . والإيمان بها يدعو إلى التشاؤم وإلى اليأس من إصلاح الطبيعة البشرية بغير الوسائل الإنتاجية التى لا تتفق دواماً وما تفهمه من العدالة والانسانية . وقد كانت الوراثة هى المركب السيكلوجى السببى الذى ختم

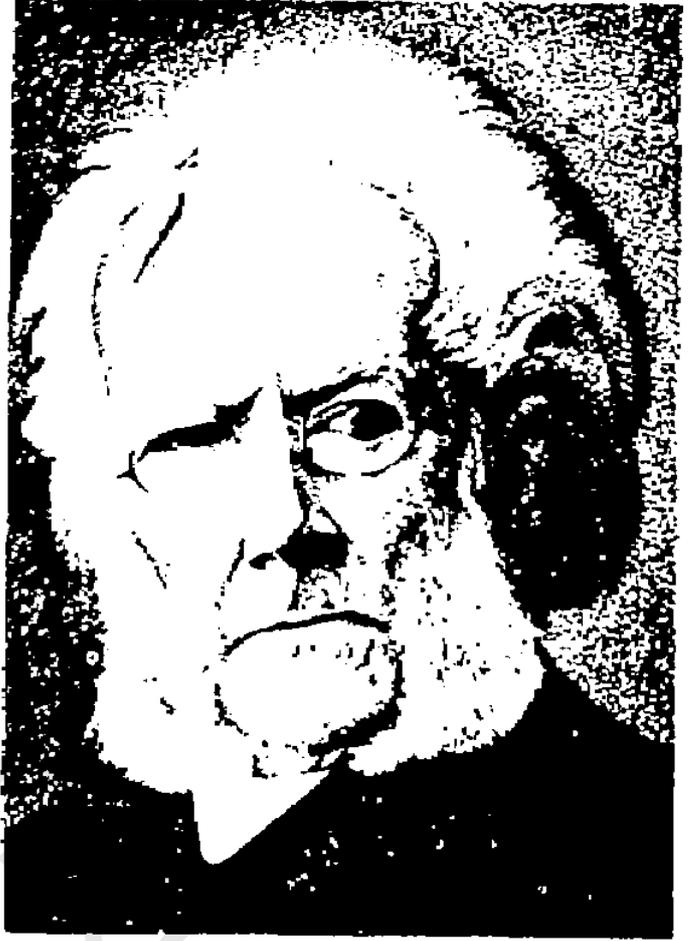
على عقل «لوهبروزو» وجعله يقول إن إصلاح المجرم غير ممكن لأنه يرث النزعة الإجرامية .

وإني عندما أقلب صفحات ذاكرتي أجد مركبات ذهنية كبيرة انتفعت بها . ولكن المركبات التي نشأت في ذهني من الإيمان بالوراثة قد أفسدت تفكيري نحو أربعين سنة . بل أفسدت أخلاقي وجعلتني أتشاءم كثيراً .

أما إيماني بالوسط فقد أعاد إلى اتزاني الذهني والأخلاقي وماأنى تفاعلاً بمستقبل البشر .

هذه هي قصة الكتاب الذي أفسد ذهني . ولكن المناخ الذهني في بداية هذا القرن كان يهيئ للإيمان بالوراثة ويؤيدها .

هنريك إبسن . . .
داعية الشخصية



هنريك إبسن هو داعية الاستقلال الروحي للإنسان عامة وللمرأة خاصة . وقد ألف درامته « لعبة البيت » في دعوة المرأة الأوروبية إلى أن تستقل . وتنشد الآفاق ، وتجرب التجارب . وتختبر الدنيا ، وتربي نفسها . بدلا من أن تعيش خلف الرجل يكسب حولها ويحوطها برعايته ويدللها في البيت ويقصر حياتها على الزواج والأمومة .

والاتجاه القديم للمرأة . سواء في الشرق أو في الغرب ، كان ينظر إليها باعتبار أنها تابعة للرجل . وأنها خلقت للبيت . وفي أرم الشرق القديمة بولغ في هذا الاتجاه حتى انتهى إلى أن المرأة أنثى فقط تزود الرجل ببلذاته الجنسية . وفي هذا قال شاعر عربي :

مالنساء والمخطابة والقراءة والكتابة

هذا لنا ولهن منا

ولم يكن العرب منفردين في هذا النظر فإن أوروبا على الرغم من المظاهر الخادعة كانت تنظر أيضاً إلى المرأة هذه النظرة في القرون الوسطى ، ولكن أوروبا كانت تمتاز بميزة كبرى هي أنها لم تفصل قط بين الجنسين في المجتمع ، ولم تعرف الحجاب إلا في أيام الإغريق . ومع ذلك لم يكن هذا الحجاب الإغريقي يغلق الأبواب إغلاقاً محكماً كما كانت الحال عندنا أيام القرون الوسطى .

ولكن مظهر الحرية الأوربية كان خلافاً خادعاً أكثر مما كان واقعياً حقيقياً إلى بداية القرن التاسع عشر . فإن كثيراً من الأمم الأوربية كان يحرم المرأة الميراث ، كما كان يحرمها التعلم في الجامعات . ولذلك بقيت محرومة من الاحتراف والاستقلال والكسب بممارسة الطب أو الهندسة أو سائر العلوم والفنون .

ولكن الضمير الأوربي كان في بداية القرن التاسع عشر قد تنبه إلى وجدان جديد هو استقلال العقل البشري وطرح التقاليد بفصل الدين من الدولة . كما أن الحركة الصناعية كانت قد جذبت آلافاً وملايين العمال الزراعيين من الريف إلى المدينة . والمناخ الذهني في المدن هو مناخ الحرية والاستقلال والتساؤل والشك . ولذلك وجدت الأفكار التحريرية تربة خصبة في المصانع والمدن . وقد جذبت الصناعة أيضاً عدداً كبيراً من النساء إلى المصنع . ووجدت المرأة في هذه المصانع جواً منعشاً بعث فيها الإقدام والاستقلال .

واحتاج هذا التطور إلى ألسنة تنطق وتعبّر في بلاغة الأديب وقوة المنطق ونظريات الفكر . فظهرت قصة « مدام بوفاري » للكاتب الفرنسي

چوستاف فلوبير ، كما ظهر كتاب ستورات ميل « إخضاع المرأة » ، ومدام بوقارى قصة امرأة تزوجت أحد الأطباء فى الريف ثم وجدت الحياة دون نشاطها وآمالها فحظمت ما تعلمته من أخلاق واندفعت فى تيار من الشهوات . قضى عليها فى النهاية فانتحرت . وكأن المؤلف يقول لنا إن حال المرأة الأوروبية سيء ، وإننا لا نفتح لها أبواب الرقى ، ولذلك تنزلق إلى مهاوى الشهوة الجنسية كى تخفف من سأم العيش المبتذل بين جدران المنزل . وكأنه يقول أيضاً : افتحوا أبواب العمل والنشاط الاجتماعيين للمرأة .

أما كتاب « ستورات ميل » فهو تاريخ لاستبداد الرجل بالمرأة ، وأن هذا الاستبداد لا يضر المرأة وحدها ويعطل كفايتها ويحول دون رقيها باعتبارها إنساناً ، وإنما هو يعطل المجتمع كله نساء ورجالا .

وجاء إبسن حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، فتبلورت فيه هذه الآراء وأخرجها درامة موجعة سامية اهتزت منها المجتمعات الأوروبية وأصبحت « نورا » بطلنة هذه الدراما قدوة المرأة الناهضة ومشعلا تهتدى بنوره .

وقد عاش إبسن فيما بين عامى ١٨٢٨ و ١٩٠٦ ، وقد غير أوروبا الأدبية وأحالها إلى الآراء العصرية ، إذ غرس فيها بذرة « البشرية الدينية » كما أبدل أخلاقها من تراث التقاليد إلى القيم البشرية التى توزن بميزان العقل . ودعا إلى الاستقلال النفسى ، وإلى ضرورة الجهد فى الحياة ، بحيث نربى أنفسنا ونكون شخصياتنا أحراراً مفكرين مكافحين مستقلين . وإبسن نروجى نشأ فى بيت ريفى ، ولكنه قضى صباه خادماً أو مساعداً فى صيدلية . ولم يكن شىء يفتح العين وينبه العقل إلى الأكاذيب الاجتماعية مثل الخدمة فى صيدلية وتركيب العقاقير فيما بين عامى

١٨٠٠ و ١٨٥٠ ، لأن الصيدليات فى تلك السنين كانت تعيش بما يقارب النصب ، إذ لم تكن عماقيرها سوى مواد غريبة الأسماء معدومة النفع ولم يكن المريض ينتفع منها بأكثر من الوهم .

ولا بد أن إبسن قد تعلم تحطيم الأصنام من هذه المراتة الأولى فى الصيدليات ، ثم احترف الصحافة فى « كرسنيانيا » . والتحق بالمسرح فى « بيرجن » . وبقى متصلاً بالمسرح للإدارة والإخراج والتأليف مدة طويلة فى كلتا هاتين المدينتين : بيرجن وكرسنيانيا التى كانت وقتئذ عاصمة نروج .

وهذا الاتصال بالمسرح أكسبه بصيرة فى الفن كما أكسبه رؤيا فى التأليف . فإن دراماته غاية فى الدقة الفنية . وكثير منها يجرى على الأسس الإغريقية للفن المسرحى وهى أن الدراماة لا تزيد على أن تكون جاسة فى مكان وزمان معينين لا يتغيران من الفصل الأول إلى الفصل الأخير .

وقد نقل الدراماة الرومانتية إلى الواقعية ، وجعلها اجتماعية تعالج المشكلات التى يعانىها المجتمع . فى إحدى الدرامات يعالج مرض السفلس وعواقبه الوحيمة ، وفى أخرى يعالج المسيحية والوثنية ، وفى أخرى يعالج استقلال الشخصية إلخ . .

ولكنه كان فى كل ذلك شاعراً ، يرى الرؤيا فتمتد نظرتة إلى الآفاق البعيدة . وفيما بين عامى ١٨٧٠ و ١٨٩٠ كان يعيش فى ألمانيا مستوحداً لا يكاد يعرف الأصدقاء . وكان يخرج دراماة واحدة كل سنتين تقريباً . وقد أوجد مسرحاً جديداً فى أوربا . وعندهما نقراً « برنارد شو » نجد أن إبسن مضمّر فيه . فقد ألف « شو » كتيباً فى الدفاع عن إبسن وأسلوبه الواقعى . وكما أن إبسن كان يرى رؤيا الشاعر ، فإنه أيضاً كان يلتزم

الحقائق . وهذا هو شأن برنارد شو .

أما أفكاره وفلسفته فتتلخص في قيمة الشخصية البشرية وضرورة استقلالها وتربيتها ، وأن هذا هو الواجب الأول على الرجل والمرأة . ومن هذه البؤرة تتشعب واجبات أخرى : هي أن نأخذ أنفسنا بالجد وأن نعتمد على العقل ونحيا . الحياة الشريفة الفنية الراقية . وألا نخضع لأطياف الماضي وأشباحه . وقد كتب إلى أخته خطاباً قال فيه : « أحب أن أرى كل شيء في وضوح وصفاء ، ثم أحب بعد ذلك أن أموت » .

وهو يعنى بهذه الكلمة الإيمائية أنه يجب أن يرى المشكلات الاجتماعية مكشوفة ، واضحة ، خالية من المركبات التاريخية والتقليدية التي تحول دون رؤيتها على حقيقتها . أي يجب على الأديب أن يكون واقعياً ، يرى الواقع الملموس ثم يبني خياله على أساسه ، ويرى رؤياه من خلال عدسته .

وأبعد ما كان يبتعد عنه إبسن هو البرج العاجي الذي يعيش فيه الأديب السخيف ، يحلم ويتخيل في عزلة عن المجتمع ومشكلاته . كأنه الأدب لذة موسيقية فقط ، وكأنه يجب أن يترفع عن معالجة الجوع والبغاء والمرض والظلم والاستبداد .

« الشخصية البشرية » هي إنجيل إبسن .

وإذن لم يكن مفر من أن يسأل عن شخصية المرأة . وهل الحضارة في عصره كانت تهيب لها أن تكون إنساناً راقياً مجدداً ، لها أهداف شريفة تعيش من أجلها وتحس أنها تؤدي رسالتها في الحياة ، كما أن لها أسلوباً فاسفياً تتخذه في عيشها ، أم لا ؟

هذه هي المشكلة التي عاجلها إبسن في درامة « بيت الدمية » أو « لعبة البيت » . واللعبة هنا هي الدمية التي تلعب بها الطفلة وهو يرى من هذه التسمية إلى أن المرأة الأوربية (حوالي عام ١٨٧٠) هي لعبة الرجل عام يقومها ويقدرها بما تتسم به من سداجة وجهل . وهي تولد في بيت

أبويها فتعامل منهما كما لو كانت لعبة تزخرف بالملابس الزاهية وتدرّب على إنكار نفسها ، فلا تتحدث عما يتحدث عنه الرجال فضلا عن أن تمارس أعمالهم . فتنشأ محدودة الفهم قليلة المعارف قد سدت في وجهها أبواب العمل الكاسب الذي يعمله الرجال ويكسبون منه أرزاقهم كما يكونون به شخصياتهم .

و «نورا» هي هذه الفتاة ، تترك بيت أبويها إلى بيت زوجها في جمال وبراعة وطمهارة وسداجة . لها وجه كأنه قد صنع من وريقات الورد وكأنه قد خلق للقبالات فقط . وجسم قد شيدته الطبيعة كأنه يمثل النبل والروعة . وهي تتحدث بلغة قد هذبت كلماتها ، فلا تنطق بما ينطق به الرجال . أما العقل فهو العقل الساذج الذي لم يختبر الدنيا ولم تمر به الأخطاء والأخطار فيتعلم ويتدرّب . وية لقاها زوجها فيعاملها كما كان يعاملها أبواها . فهي حتى عندما تبلغ الأربعين أو الخمسين ستبقى طفلة .

وإبسن يثور على هذا الوضع ويتساءل : لماذا تبقيين طفلة ؟ أين شخصيتك وذكاؤك ؟ ولماذا تحرمين اختبارات هذه الدنيا ؟

وتجري الدراما في سياق التمثيل الذي يوضح لنا أن المرأة لن تكون نحو ما نحب أن تكون المرأة عليه . لأن كل هذه الصفات تعني في النهاية إنساناً إلا عندما ترفع نفسها من الأنثوية . وأن هذا لن يكون إلا عندما تأخذ نفسها مأخذ الجد ، فتستقل بشخصيتها وتتعلم وتختبر . ونحن الرجال لا نتعلم ونرتفع إلى المقام الاجتماعي أو المكانة الذهنية أو الفهم المحيط . كما لا تتكون لنا شخصية ، إلا لأننا نختلط بالمجتمع ونعالج الخطأ ونقع حتى في الخطر . وليس هناك رجل يفخر بأنه ساذج أو ظاهر أو برىء على نحو ما نحب أن تكون المرأة عليه . لأن كل هذه الصفات تعني في النهاية أننا نحب جهل المرأة وإبقاعها طفلة أو « لعبة » كما يقول إبسن .

ونورا بعد أن تتكشف لها حالها هذه تترك بيت الزوجية ، تترك

الزوج والأطفال : بعد أن تشرح لزوجها أنها طفلة ، وأنها لن تقبل أن تعيش سائر حياتها في هذه الطفولة ، وأنها ستخرج إلى الدنيا كي تعامل وتختبر حتى تنجز لنفسها وعد حياتها ، وحتى تؤدي حق إنسانيتها ، بأن تبني شخصيتها بالمعرفة والاختبار والدرس مهما ارتكبت من أخطاء أو وقعت في أخطار . ذلك لأن رسالة الإنسان في هذه الدنيا أن يعرف الدنيا ولا يحاط بسياج من الواجبات الاجتماعية تحول دون فهمه أو بنائه لشخصيته . وقد أحدثت هذه الدراما ضجة كبرى في العالم الأوربي لأنها صدمت العقائد والتقاليد . ولكن الضحة هدأت أو انفثأت عن انتصار المرأة والتسلم بأن جمالها القديم ، جمال الوجه والصدر والقامة والفخذين ، هو جمال الأثني .

وأما جمال المرأة الجديدة فيجب أن يعلو على ذلك ، أي يجب أن ينطوى على العقل النير والشخصية الراقية التي تدربت بالتجارب والاختبارات ، وارتقت بالثقافة واشتركت في شؤون المجتمع ، وقد كان إبسن رؤياى المنيرة حين كنت حوالى العشرين ، أتلمس المثليات الأوربية والقيم العصرية ، وأبني شخصيتي الذهنية . وكان مركز المرأة المصرية يحز في صدرى كأنه خزي أبدي لولا هذه المحاولات الصغيرة العظيمة في مثل كتابي قاسم أمين ثم ، بعد نصف قرن ، في نشاط هدى شعراوى وسيرا نبراوى ودرية شفيق وأمينة السعيد وأمثالهن .

ونحن الشرقيين قد ورثنا تراثاً سيئاً من القرون المظلمة ، هو تراث الرق والحصيان والحجاب . وأولئك الذين يدافعون عن الحجاب ينسون خصاء الزوج كي يتممه ، أى يتم الحجاب ، ولعلمهم ينجملون حين يذكرون ذلك .

لقد تعلمت من إبسن شرفاً جديداً لم أكن أعرفه حين تركت بلادى إلى أوربا في عام ١٩٠٧ ، هو شرف الإنسانية التي يجب ألا يحدها حجاب

المرأة . هو شرف الزواج الذى يقوم على الاخاء والمساواة ، ليس فيه سيد وعبد ، وهو شرف الأمة التى ترفع نساءها إلى مقام الوزيرات والنائبات وتفتح لهن المدارس والجامعات .

قبل خمسين سنة كنا نقعد إلى المرأة فنجد الجهل مع السذاجة ، جهل وسذاجة يبعثان الاشمئزاز الذهنى فى الرجل الناضج . ولا تزال هذه الحال باقية فى معظم أوساطنا . ولكن الدنيا تتغير ، وهى تتغير لمصلحة المرأة ورفعتها وترقيتها ، ولن ترتقى المرأة المصرية وتبلغ النضج أو الإيناع إلا عندما تختلط بمجتمعنا نحن الرجال وتمارس أعمالنا وتعب من اختباراتنا وتشارك فى الصناعة والتجارة والسياسة وتواجه الأخطاء والأخطار .

وليست عبرة « لعبة البيت » مقصورة على المرأة ، فإنها تمس الرجال إلا القليل من الناضجين . ذلك أن الرجل العادى فى كثير من تصرفاته يعيش بلا استقلال ، وليس له من الشخصية سوى الاسم . يخضع للتقاليد وينساق فى تيار العرف . وصحيح أن الدنيا تربيته وتصلب عوده وتخصب شخصيته بالاختبارات والاصطدامات التى تحرم منها المرأة . فهو يخطئ ويصيب ويتعلم ويقف على كثير من الأكاذيب الاجتماعية التى تفتح ذهنه وتنير رؤياه ، وكل هذا لانصيب المرأة منه شيئاً لأنها محبوسة بسياج أو حجاب من التقاليد .

ودعوة إسبن هنا : لتكن لكل منا شخصية ولينظر كل منا إلى المغنيا كما لو كان هو محورها ، ليس لأحد ولا لعقيدة سلطان عليه إلا ما يرى بعد التفكير الاستقلالى أنه نافع له ولمجتمعه .

إننا نطلب الحرية من القوانين والدساتير ، ولكن كل ما تستطيع هذه أن تهبنا من حقوق هو على الدوام دون ما نهب أنفسنا . لأن قيود التقاليد واصطلاحات العرف الاجتماعى تقيدنا أكثر مما تقيدنا به مظالم المستبدين التى تحاول الدساتير والقوانين محوها أو مكافحتها .

وحتى حين يستبد بنا حاكم ظالم ويستعين بالقوة المادية على تقييد
حریتنا نستطيع الاحتفاظ بكرامتنا والإحساس باستقلالنا . لأننا نقاوم
ونكافح استبداده وجبروته ونحن على وجدان بأننا أرق منه . ولكن استبداد
التقاليد ينغرس في نفوسنا . ويعين مزاجنا . ويعودنا عادات ذهنية ونفسية
تجعل كلاً منا أسيراً . أجل ، وأسیر نفسه مع ذلك . فالمرأة التي نشأت على
الحجاب لا تحس هوانه كما لا تعرف جهلها . وهي لذلك لا تقاوم ولا
تكافح . وكذلك شأن الرجل الذي يعيش في أسر التقاليد وكأنها من
طبيعة الأشياء التي لا تتغير . بل لا تحتاج إلى التغيير .

والفرق بينه وبين المرأة هو فرق الدرجة فقط إذ هو في حجاب نفسى
وذهنى . وهذه الدنيا هي ملك الإنسان وعلينا جميعاً رجالاً ونساءً أن نتعلم
وننضج ولا نكون لعبة الأقدار أو لعبة المجتمع . وعلينا أن نستقل
وندرس ونختبر الحقائق ، وليس هذا واجب « نورا » وحدها ولا واجب
النساء وحدهن وإنما هو واجب الرجال أيضاً .

ونرحم هذا الدرس الذى علمنا إياه إبسن ، درس حق كل إنسان فى
تقرير مصيره وتربية شخصيته .

* * *

كنت قبل سنوات أصطاف بالإسكندرية ، وكنا نقعد رجالاً ونساءً
فى اجتماعات عائلية على الشاطئ نتجاذب الحديث . وما كان أسخف
ما كانت تتحدث عنه النساء .

شئون الخدم ، وزواج هذه الأنسة أو تلك الأرملة ، وهذا الخطيب الثرى
المنتظر لهذه الفتاة ، وخاتم الخطبة ، ومبلغ المهر لتلك الفتاة الأخرى .
والسكنى فى الزمالة والأتومبيل الجديد عند فلان « بك » وهذه الحياطة
البارعة وذلك القماش الجديد إلخ . .

أحاديث تافهة من شخصيات تافهة . واهتمامات زائفة نشأت من حبسة البيت وحبسة النفس . فلم يكن بين هؤلاء النسوة من كانت تهتم ببحث العبرة والدلالة للطاقة الذرية ، أو لبيئة الأمم المتحدة ، أو لفلسفة برتراند سل أو للمخترعات الطبية أو لمستقبل المرأة في الهند ومصر ، أو لمعنى الدين أو برامج المدارس . وكأنهن لم يكن يقرأن الجرائد فضلاً عن الكتب .

ولكن كان في هذا الوسط فتاتان لم تتزوجا وإنما احترفتا التمريض في أحد المستشفيات بالقاهرة ، وكنت عندما أقعد إليهما وأتحدث أحس أني إزاء شخصيتين عالميتين . فقد اكتسبت كل منهما نظرة عالمية أخرى غير المنزل والخدم والطبخ وأحمر الشفاه والفيستان الحديد .

وقد استمعت إلى حديث إحداهما عن المرضى والأمراض ، واختلاف الناس في استقبال الموت ، أو الحكم بالموت ، عندما يعرف المريض أن سرطاناً قديماً قد نبت وتفرع في جوفه . ووصفت لي إحداهما كيف رأت رجلاً قبيل الزرع وكيف خفت عنه .

وكنا في سيدى بشر وهي تبعد عن الإسكندرية بنحو عشرة كيلومترات ، فاقترحنا على أن نهض ذات صباح ونسير على الأقدام بجذاء الشاطئ إلى الإسكندرية .

وكنت أحس وأنا أتحدث إلى كل منهما أني إزاء إنسان قد استحال إلى شخصية ناضجة تمتاز بجمال وكرامة وذكاء . وذلك لأن اختلاطهما بالمجتمع وخدمتهما له قد زاد ذكاءهما وكون شخصيتهما ، ولو أن كلا منهما كانت قد نشأت النشأة المألوفة عند غيرهن ، اللأى يعشن في البيت وينتظرن الزوج ، ثم يتزوجن ويقصرن اهتمامتهن على اللباس والخدم وقصص الزواج والثراء ، لما كانت لها هذه الشخصية .

والذكاء ينهض على أساس طبيعي ولكنه يربى بالمجتمع . ونحن الرجال بما نمارس من اختبارات ونكايد من كسب أو خسارة ونصادف من أخطار ، بل بما نرتكب من أخطاء ، نتعلم وننمو ونزيد حكمة . والمرأة كذلك لن تكون إنساناً حكماً إلا إذا مارست جميع الأعمال التي يعملها الرجال واقتحمت ميادينهم وتعرضت للأخطار مثلهم .

وهذه الصورة الجديدة للمرأة قد لا تعجب بعض الرجال الذين يؤثرون جهل الزوجة على معرفتها وقصورها على نضجها . وهم يحسون سيطرة ويمارسون تسلطاً عليها في هذه الحال ، ويلتذون هذه المرتبة أو الميزة العالية لهم عليها . ولكن المرأة الرشيدة يجب أن تتنبه وترفض أن تكون لعبة الرجل كما رفضت «نورا» .

ونحن الرجال نعرف أن المدرسة والجامعة لا تربيانا وإنما الذي يربينا هو هذا المجتمع الذي نختلط به ونصطدم بمشكلاته . ونحن لا نستقطر الحكمة ، ونضج النضج الفلسفي ، إلا بعد أن نخطئ ونصيب ونخسر ونكسب ، ونساق ساعة الهوى ، ثم نفيق عقبها سنين لأننا عرفنا الحقائق بالخبرة ومارسنا هذه الدنيا في حربة واستقلال بلا خوف من سلطة أو تقاليد .

وهذه الحكمة التي نناها نحن الرجال من اختباراتنا لهذه الدنيا يجب أن تنالها المرأة بمثل الوسائل التي نتوصل نحن بها ، أي بالعمل والإنتاج والاختلاط والاستقلال والاختبار .

وهذه الصورة الجديدة التي رسمها لنا إبسن في نورا قد تحققت في المرأة الأمريكية إلى أبعد حد . وكذلك تحققت إلى حد ما في المرأة الانجليزية والإسكندنافية والروسية حيث تعمل المرأة إلى جنب الرجل وتستقل بما تكسب . ولم يعد الرجل يعولها ، وقد أصبحت شخصيتها قوية جليلة تواجه الدنيا في شجاعة وتحترف الحرف التي ترقبها وتنبه ذكاءها

وتقتل عضلاتها . وهي في كل ذلك لم تهمل مهمتها البيولوجية في الزواج والحمل والولادة .

وقد جددت ظروف جعلت هذا الاتجاه نحو استقلال المرأة يسير بسرعة . ذلك أن وفرة الآلات الميكانيكية في البيت الأمريكي أغنت المرأة عن العمل في الطبخ والغسل . فزاد فراغها الذي احتاجت إلى أن تشغله بالعمل والكسب خارج البيت . ومعنى هذا أن التغيير في الإنتاج المنزلي قد أحدث تغييراً في أخلاق المرأة . وحققت هذه الآلات الكهربائية دعوة إبسن من حيث لم يكن ينتظرها .

والمقارنة بين المرأة الأمريكية التي تعمل في المصانع والمتاجر والمكاتب ، وتستقل بعواطفها ، وترسم بيدها خارطة حياتها ، وتقرأ وتناقش وتكسب وتحسر وتصيب وتخطئ ، وقد تكونت لها شخصية رصينة بصيرة قوية من هذه الحياة ، نقول إن المقارنة بينها وبين المرأة الأوروبية في الأقطار الجنوبية مثل إسبانيا وإيطاليا ويونان حيث لا يزال المطبخ يجري على تقاليدته وحيث يستأثر المطبخ والغسل بمعظم الوقت ، وحيث يسود الرجل المرأة وله عليها الكلمة العليا ، بحيث يقرر لها ، أو يكاد يقرر لها ، مصيرها — هذه المقارنة توضح لنا سمو المرأة الأمريكية الجديدة ، باعتبارها إنساناً عاقلاً مستقلاً ، على هذه المرأة الأوروبية الجنوبية لا التي تزال مقيدة بالتقاليد .

إن العمل والكسب والاختبار والإصابة والخطأ والاختلاط بالمجتمع قد ربي المرأة الأمريكية ، في حين أن الانزواء في البيت قد قيد النمو الذهني للمرأة الأوروبية الجنوبية . ولا نذكر المرأة الشرقية .

نيتشه
أو فتنة الشباب



اثنان انخدعت بهما سنوات كثيرة . أولهما فيسمان الذي غرس في ذهني أن الصناعات المكتسبة لا تورث . وإحساسي الآن نحو هذا الرجل هو البغض . أما الثاني فهو نيتشه الذي خدعني : فافتنت به سنوات ، قبل أن أنخلص منه . وإحساسي نحوه هو الحب .

وقد عرفت نيتشه في عام ١٩٠٩ وكنت منغمساً في نظرية التطور .

وكان « تنازع البقاء » و « بقاء الأصلح » و « الطبيعة حواء بين الناب والمخلب » من المعاني التي أقبأها في صمت وتسليم . وهذه المعاني جميعها تنقض الديانات التي تقول بالرحمة والتعاون والإنحاء البشري بحماية الضعيف .

وهبط على نيتشه كما لو كان وحياً أو كشافاً . نثر ساحر كأنه أبيات

من الشعر . وخيال يرتفع إلى آفاق المستقبل . وجرأة تكاد تجمد ذهن الناشئ رهبة وجزعاً أو تنفضه حماسة وطرباً . ثم إلى ذلك فلسفة تعلو على برود المنطق ، وتأخذ بحماسة الإيمان وغلواء التفاؤل . وفي كل ذلك ارتباط بالتطور . . « إني أعلمكم علم السبرمان ، أو الإنسان الأعلى . ما هو القرد إزاء الإنسان ؟ أضحوكة أو خزي . . وكذلك يجب أن يكون الإنسان إزاء السبرمان ، أضحوكة أو خزي ؟ . . إنما الإنسان معبر أو جسر يصل بين القرد والسبرمان . سوف يكون السبرمان ازدهاراً وخيراً وتعبيراً نهائياً للأرض . أستحلفكم أن تكونوا أمناء للأرض . وأن تكفوا عن التطلع إلى النجوم تنشدون منها آلاماً ومكافات . إن عليكم أن تضحوا بأنفسكم للأرض حتى يتاح لها أن تنجب يوماً ما السبرمان . الإنسان شيء يعلى عليه ، فماذا فعلتم كي تعلوا عليه ؟ »

كلمات رائعة كان وقعها في نفسي ، وأنا حوالي العشرين ، وحيثاً أو كشفاً ، فتعلقت به ، وكتبته عنه مقالاً في مجلة المقتطف في عام ١٩٠٩ بعنوان « نيتشه وابن الإنسان » .

وقد كانت نظرية التطور جديدة في أوروبا ، وكانت تكشف عن صورة وحشية للتطور . وقد استلهم منها أعداء المسيحية برهاناً جديداً يقيمونه لنقضها ، وكانوا قبل ذلك يقنعون بالمقارنات التاريخية بين الأناجيل يوضحون زيف الأساطير في الدين . ولم يكن يجرؤ أحدهم على القول بأن الأخلاق المسيحية ليست هي الأخلاق المثلى أو أنها تؤخر البشرية أو أن هناك ما هو أرقى منها . ولكن نيتشه لم يبال الأساطير أو المعجزات : إذ عمد إلى دعوة المسيحية التي امتازت بها ، وهي الرحمة وحب المساكين والضعفاء ، فحمل عليها ووجد فيها ميداناً لبحث القيم والأوزان التي يعيش بها الأوروبيون المسيحيون . فقال إن هذه الأخلاق تعارض بقاء الأقوياء « الصقور » وتصدهم عن حقهم الذي تنطق به الطبيعة وهو

أن الصقر يجب أن يأكل العصفور . فإن بين البشر عصافير ضعفاء يستحقون الفناء ، كما أن بينهم صقوراً قوية تستحق البقاء . وهو في هذا المنطق لا يذكر داروين . مع أن القارئ لمؤلفاته لا يتالك أن يذكر نظرية التطور .

ونيتشه أديب من الطراز الأول . وهو أيضاً لغوى وفيلسوف . ومن هنا سحره الذي لا يقاوم . فإنه يفكر تفكير الفيلسوف ويكتب بلغة الأديب . وهو يرجع بحثه إلى التاريخ .

فإن الرومانيين القدماء كانوا قبل أن يعتنقوا المسيحية يتخذون السيف شعاراً والقوة مذهباً ، وكانت أخلاقهم تنزع إلى البطولة كما يتضح من كلمة Virtue ومعناها الفضيلة . فإنها مشتقة من كلمة Vir ومعناها الرجولة ، فالفضية كانت عند الرومانيين صفة الرجولة أو أهم خصائصها ، ولكن المسيحية جاءت في زعم نيتشه فاستبدلت بالرجولة والبطولة ضعفاً زريماً نرى نتائجه في شعوب أوروبا الحاضرة حيث تتفشى الأمراض وتكاد تكون خالدة لأننا نحمل كل مريض ونعنى بعلاجه .

ولد نيتشه في عام ١٨٤٤ ومات في عام ١٩٠٠ وكان أبوه قسيساً ، كما كانت أمه امرأة متدينة . وقد هيء لأن يدرس في كلية دينية كي يكون قسيساً ، ولكنه التفت إلى اللغات فبرع فيها . ومن تحليل الكلمات القديمة استطاع أن يحلل التطور الأخلاقي في أوروبا . ونستطيع أن نلخص فلسفته بأنها ترمى إلى أن تجعل غاية الحياة خدمة الأقلية من الشخصيات السامية ، وليس خدمة الأكثرية أو سواد الأمة . وهو هنا بالطبع غير ديمقراطي ، بل عدو الديمقراطية .

وهو بكلمة أخرى يطلب أخلاق السادة بدلا من أخلاق «القطيع» كما يصف سواد الشعب .

وما ينبهنا هنا أن هتلر كان كبير الإعجاب به ، وقد أهدى مجموعة فاخرة من مؤلفاته إلى موسوليني . وكلاهما ، أى هتلر وموسوليني ، كان عدواً للديمقراطية . ولكننا لا نعى من هذا القول أن نيتشه يحمل قارته على الاعتقاد بأن الفاشية نظام حسن ، فإن فيه أحياناً من سمو الفكرة ونضج الحكمة ما يجعلنا نشمئز من المقارنة بينه وبين هذين الطاغيتين .

ونحن نضحك منه حين يقول : « اللحدون والمسيحيون ، والبقر والنساء ، والإنجليز وسائر الديمقراطيين ، ينتمون إلى أصل واحد » .
ولكننا نحس بروعة أفكاره حين يقول : « الزواج هو اجتماع إرادتين لإيجاد شخص ثالث أعلى من الزوجين » .

وقوله : « لا يجب فقط أن نتناسل إنما يجب أن نتناسل إلى أعلى » . وهذا أحسن ما قيل عن الزواج . فإنه رفعه من معاني السعادة واللذة إلى معاني التطور والتضحية ، أى يجب أن يدبر الزواج بحيث يؤدي إلى الرقى البيولوجى وإيجاد السبرمان وزيادة الذكاء والصحة والقوة .

وحملة نيتشه على المسيحية تتساق مع فلسفته . فإنه يجد فيها دعوة إلى التواضع والخضوع والطيبة ، فى حين هو يطلب الارتفاع والكبرياء والقسوة . أو يمكن أن يقال إن المسيحية تنشئ مجتمعاً أفقيًا يتساوى فيه الجميع ، بل يمنع التفوق لبعض أفرادهِ ويعيد الجميع إلى حال سواء من التوسط . ولكن نيتشه ينشد مجتمعاً عمودياً يتيح للعظماء أن يتفوقوا ويسودوا .

وعنده أن « الشرف » وثنى روماني أرسقراطى . أما « الضمير » فسيحى يهودى ديمقراطى . وأن أوربا لهذا السبب مهددة ببوذية جديدة تنكر فيها الحياة . ومن أقواله :

« الغريزة هى أسمى أنواع الذكاء التى اكتشفت إلى الآن » .

« ونصيحتي إليكم أيها الإخوان هي : كونوا قساة صلاباً » .
 « علينا أن نفر من أقرب الناس إلينا ، من جيراننا ، ونحب أبعد
 الناس عنا » .

« تفاوت الحقوق هو الشرط الأساسي لوجود الحقوق » .
 « لصغار الناس صغار الفضائل ، ولكنني لا أعرف ما حاجتنا إلى
 صغار الفضائل » .
 « ليس للأناية قيمة في الأرض أو في السماء . وجميع المسائل العظيمة
 تحتاج إلى حب عظيم » .

« الانتقام الصغير أكثر إنسانية من العف عن الانتقام » .
 « ما هو الشيء الحسن ؟ هو كل ما يزيد الإحساس بالقوة ، أى
 إرادة القوة ، أى القوة ذاتها في الإنسان » .

« وما هو الشيء السيئ ؟ هو كل ما ينشأ من الضعف » .
 « عيشوا في خطر ، شيدوا مدنكم إلى جنب فيزوف . ابعثوا بسفنكم
 إلى بحار مجهولة » .
 « لأنك جعلت الخطر حرفتك ، لذلك أدفنك بيدي » .

ومن هذه المختارات الموجزة نجد أن نيتشه لا يقدم لنا فلسفة ومنطقاً
 بمقدار ما يقدم لنا أشعاراً أو مذهباً وعقيدة خلاصتهما أن نتخلص من
 الضعف ونقسو على أنفسنا وعلى غيرنا . ومع أننا نحس من اتجاهاته
 الفكرية أنه على التصاق واعتناق لمذهب داروين في التطور البيولوجي ،
 فإن الميزة واضحة في أنه لا يطلب سبرماناً للمستقبل بمقدار ما يطالب منا
 أن نكون نحن على سمو وارتفاع فوق العامة ، وعلى مقاطعة للأخلاق
 المسيحية .

وإنسان المستقبل (السبرمان) الذي يرتفع فوقنا بمقدار ما نرتفع

نحن فوق القردة ، لا يحتاج لإيجاده إلى القسوة الأخلاقية بمقدار ما يحتاج إلى التنظيم الاجتماعي للزواج والتناسل . وهذا يتم بالتعاون والرفق أكثر مما يتم بالتنازع والقسوة .

ومنطق المسيحية هو المنطق الإنساني بالتعاون ، ومنطق نيتشه هو المنطق الفطري بالتنازع .

وقسوة المبادئ الإمبراطورية ، والقول بأن هناك سلالات بشرية لها حق السيادة على الشعوب السوداء أو السمراء أو الصفراء ، هما أبعد ما يكونان عن تفكير نيتشه عندما نتأمل ونتعمق مؤلفاته . ولكن ليس هناك شك أن الدراسة السطحية قد عملت لتأييد هذه الاتجاهات ، كما يتضح من إكبار النازيين الألمان والفاشيين الإيطاليين لمؤلفاته لاعتقادهم أنه يؤيدهم .

• • •

والفارئ لنيتشه في حملته على المسيح يحس وجاهة الرأي الذي يقول به « أندريه جيد » ، وهو أن نيتشه يغار غيرة شخصية من المسيح . فإن كلماته تحمل أحياناً بذاء أكثر مما تحمل نقداً . وهو في كتابه « هذا ما قال زرادشت » يقحم الإنجيل ويكذب كلمات المسيح . بل نحس ، ونحن نقرأ هذا الكتاب ، أنه يقلب العبرة والدلالة من كلمات المسيح ويضع مكانها كلمات أخرى لها نقيض الأخلاق المسيحية . ثم يزيد على هذا فيحاكي أسلوب الإنجيل . فكما أن المسيح كان يجادل الفريسيين ويناقضهم ، كذلك نيتشه قد جاء كي يجادل « الطيبين العاديين . . . لأن عقولهم مقيدة في سجون ضمائرهم » . ثم يخاطب تلاميذه بما يشابه أو يطابق خطبة الجبل حين خاطب المسيح تلاميذه ، ولكن مع الفرق في العبرة والدلالة . إذ حيث يدعو المسيح إلى الرحمة والحنان والإخاء للبشرى في

أبوة الله ، يدعو نيتشه إلى القسوة وضرورة التفاوت . ولتيتشه كما للمسيح خلوته واستيحاؤه وله أيضاً « العشاء الأخير » الذي يقول عنه بلسان زرادشت « هذا العشاء لتذكروني » .

ثم تزداد الغيرة إلى حد الجنون فيقول : « ما هي أعظم الخطايا على الأرض إلى يومنا هذا ؟ أليست هي قول ذلك القائل : ويل لكم أيها الذين تضحكون في هذا العالم » . وهو هنا يشير إلى المسيح ثم يحاكي ويناقض بما في قوله على لسان زرادشت :

« صحيح أنكم إذا لم تصيروا كالأطفال الصغار فإنكم لن تدخلوا ملكوت السموات (وهنا يشير زرادشت إلى السماء) ولكننا لا نرغب في أن ندخل هذا الملكوت لأننا قد صرنا رجالاً . ولهذا نحن ننشد ملكوت الأرض » .

بل يتحدث في جنون ، فيأسف على أن المسيح لم يعمر طويلاً . ويقول إنه لو كان قد عمر طويلاً لنقض آراءه التي كان قد قال بها ، ثم يقول : « حقاً لقد مات هذا العبراني . .

» لم يكن قد عرف في حياته سوى دموع العبراني وأحزانه ، مع كراهة الطيبين والعادلين ، هذا المسيح العبراني ، ثم إذا ببيداء الموت تطويه . . .

« ولم يعيش في البيداء بعيداً عن الطيبين والعادلين ، لعله لو كان قد فعل لكان قد عرف كيف يعيش . وكان عندئذ يحب الأرض والحياة أيضاً . .

» ثقوا يا إخواني أنه مات دون أن يعمل ، ولو أنه كان قد عاش مثلما عشت ، وعمر مثلما عمرت ، لنقض ما كزن قد قاله ، أجل : إنه كان على شرف يحمله على أن ينقد ما كان قد قاله .

« ولكنه لم ينضج ، وحبه إنما كان حب الشباب الذى ينقصه النضج .
وهذا هو علة كراهته للأرض والحياة » .

* * *

إن كثيراً من أقوال نيتشه يوهم الهوس إن لم نقل الجنون . وربما
مما لا شك فيه أنه قضى نحو عشرين سنة وهو فى جنون يكاد يكون
مطبّقاً ، إذ كان فى الدورا الأخير من السفلس . ولعل هذا الجنون كان قد
تسلل وئيداً قبل أن يطبق عليه . ولعل أيضاً بعض هذيانه يعزى إلى هذا
المرض .

على أن كثيراً من « الهذيان » لا يزيد أن يكون إسرافاً وتوتراً
فى التعبير .

ولكن ليس من الصواب أن نحذف نيتشه بدعوى الهوى أو الهذيان
أو الجنون ، فإنه قد عرض لقضية إنسانية واضحة يجب على كل فيلسوف
أن يواجهها فى صراحة وأن ينتهى فيها إلى حكم فاصل . وليس ثم مفر
من هذه المواجهة .

وهذه القضية هى أن مصلحة البشر وارتقاء الإنسان يقتضيان محاربة
الضعف والمرض والنقص كما يقتضيان تشجيع وتأييد الصفات العالية
كالصحة والقوة والذكاء فما دام هذا هو الهدف فهل من الخير للناس
أن يؤسسوا المستشفيات لمعالجة المرضى ؟ وهل من الخير أن يباح الزواج
للأبله والمغفل والأشوه ؟ ثم ما دمنا نؤمن بأننا كنا على مستوى منخفض
من الذكاء قبل مليون سنة ، حين كنا والحيون سواء ، فلماذا لا نعمل
فى اطراد التطور كى نزيد صحة وقوة وذكاء ؟

لقد كنا فى الغابة نعيش بالفطرة ، وكانت الطبيعة قاسية لا ترحم ولا
تعرف دواء لمعالجة المرضى ، وكان الموت يفشو ويفتك بالآلاف ولا

يبقى منا غير الصالح القوى القادر على المشقات . ثم جاءت الحضارة فجمعت الضعيف إلى جنب القوى . وسادتنا أخلاق الرحمة والإخاء والتصدق ، فعاش بهذه الأخلاق ناس ما كانوا ليستطيعوا العيش في الغابة . ثم هم مع ذلك يتزاحمون ويتناسلون فيجعلون المرض والضعف والدمامة مخلدة في العناصر البشرية .

وصيحة نيتشه هنا : عودوا إلى شريعة الغابة ، عودوا إلى تنازع البقاء ، هي صيحة تستحق النظر والتأمل . ولا يغني فيها القول بأنه كان مريضاً بالسفلس أو أن هذا القول هذيان . إذ ليس هذا هذياناً .

لقد كان القرن التاسع عشر عصر الإيمان بالوراثة ، وهي القدر الذي يعين لنا حظنا في الحياة بما ورثنا من كفايات من آباؤنا . ومع أن القرن العشرين قد نقض كثيراً من هذا الرأي ، وأدحض بعض الأركان لهذا القدر ، فإن الوراثة لا تزال تحتل جزءاً كبيراً من التفكير البيولوجي . وكلنا يثق هذه الأيام بقيمة الوسط في التغير والتطوير ولكن مع اختيار السلالات التي تعينت لها صفات واستقرت فيها خصائص بحيث نعود فنستغل هذه الصفات والخصائص في الوراثة .

وقد ظهرت « اليوجينية » أي علم ترقية السلالات البشرية بناء على الإيمان بالوراثة ، وهي إلى الآن يوجينية سلبية . بمعنى أن الأمم المتمددة تعتمد إلى تعقيم الناقصين والبله حتى لا يتناسلوا . وقد عمد هتلر إلى شيء من اليوجينية الإيجابية بتشجيع المتفوقين على التناسل وخصهم بمميزات لم يكن يحصل عليها سائر أفراد الشعب . وذلك أيام النازية . وهذا كله من وحى نيتشه كما هو من التعاليم التي فشت عقب نظرية التطور .

وقد كان لكتاب البيولوجي فيسمان « الجرثومة المنوية » أكبر الأثر في الإسراف في الإيمان بالوراثة ، وقد أفسد هذا الرجل ذهنه بل أخلاقه

مدة طويلة .

ولكن رويداً رويداً تغيرت الذبيرة في التطور . فبدلاً من القول بتنازع البقاء في الطبيعة أثبت كوربتكين أن التعاون ، وليس التنازع هو شريعة الغابة . ثم انتهينا في السنوات العشر الأخيرة إلى التسليم بأن الوسط يغير الحي ، نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ، وأن هذا التغير الوسطي يعود فيثبت بالوراثة .

ففي ضوء التطورات وفي تجارب الوسط لا نستطيع أن نسلم بمذهب نيتشه بأن نكون قساة لا نرحم . فالتطور يصيح بالتعاون ، والوسط يستطيع أن يغير ، ونحن البشر بما وصلنا إليه من معارف بيولوجية نستطيع أن نزيد سرعة التطور بالتنظيم الاجتماعي الذي يحقق الارتقاء البيولوجي .

• • •

كثيراً ما أعود إلى قراءة نيتشه لا لأني مقتنع بمنطقه ، ولكن لأني أجد سحراً على الدوام في تعبيره وأحياناً في تفكيره . انظر إلى ما يقوله عن الرحمة :

« إن الرحمة تناقض الشهوات الحية المنعشة التي ترفع نشاط البشر وتزيد إحساس القوة ، إذ هي تكرب وتغم . ونحن نفقد حيويتنا حين نمارس الرحمة . وما نفقده من قوة وحيوية ، بسبب الألم مثلاً ، يزداد ويتضاعف بالرحمة . حتى ليصير الألم معدياً بالرحمة . وقد يؤدي في بعض الظروف إلى أن نفقد الحياة ذاتها ، وإذا شئت برهاناً على ذلك فاذا ذكر هذا النصراني الذي انتهت به رحمته لأبناء البشر إلى الصليب !

« وأيضاً تفسد الرحمة شريعة التطور التي تقول ببقاء الأصلح . وهي ، أي الرحمة ، تستبقي ما كان يجب أن يموت ، كما تعمل لمصلحة

الذين حكمت عليهم الطبيعة . وهي تضيء على الحياة لونها قائماً بعدد
الناقصين الفاسدين الذين تعرفهم . وهي تضاعف التعس كما تحافظ عليه .
وهي الأداة الأولى لترويج الانحطاط . وهي تؤدي إلى الفناء ، إلى إنكار
الغرائز التي تنبئ عليها الحياة . . . !

وليس شك أن في هذا الكلام هدياناً كثيراً ، ولكنه كان هدياناً
يسحرنى لأول وقعه في نفسي ، وأنا خام أخضر في سن العشرين . كان
يسحر وينبه ، إذ كان يبعث على المراجعة والفحص عن الأخلاق
العامّة والتقاليد الموروثة التي كنا نعيش فيها مستسلمين غير متسائلين
أو مستطلعين .

أو انظر على ما يقوله عن الحياة :
« إنما الحياة في صميمها امتلاك واحتياز وإيداء ، ومحق للضعفاء
والعاجزين عن التلاؤم والتكيف . وهدف الحى هو إبراز شخصه والتمكن
من تأدية وظائفه غير معارض أو معطل . »

وهذه المقتبسات التالية هي صورة المجتمع والحضارة كما يراها نيتشه
إذ يقول :

« إن نظام الطبقات هو السنة السائدة للطبيعة . وهي سنة لا تستطيع
أية قوة بشرية أن تتغلب عليها في كل مجتمع صحيح توجد ثلاث طبقات
لكل منها أخلاقه وعمله وما يفهمه من معاني الكمال والسيادة . وتتألف
الطبقة الأولى من أولئك الذين يمتازون بالتفوق الذهني على سواد الأمة .
وتتألف الثانية من أولئك الذين يمتازون بالتفوق العضلي ، أما الطبقة الثالثة
فمن المتوسطين .

« وللطبقة الأولى ميزة التمثيل للجمال والسعادة والطيبة على الأرض .
وأفراد هذه الطبقة يقبلون هذا للعالم كما هو ويستخدمونه بما في مستطاعهم ،

وهم يجدون سعادتهم في تلك الشؤون التي تدمر من هم دونهم في الصعوبات والقسوة نحو أنفسهم ونحو غيرهم من الجهد ولذتهم في حكم أنفسهم . والنسك عندهم طبيعة وضرورة وغريزة . وهم يتحملون الواجبات الشاقة كما لو كانت امتيازات يمتازون بها . وهم يرتاضون بتحمل الأعباء التي تسحق غيرهم إلى الموت . وهم زبدة الناس وأكثرهم حباً وفرحاً ، وهم يحكمون عفو طبيعتهم . كما أنهم ليسوا أحراراً في أن ينتظموا في الصف الثاني .

« أما الطبقة الثانية فتتألف من الأوصياء وحفظة النظام والأمن ، رجال الحرب والأشراف والملك ، وفوق هؤلاء القضاء حماة القوانين . وهم أسمى طرازاً من المقاتلين الحربيين ، فإنهم ينفذون أوامر الطبقة الأولى ويريجونها من الأعمال اليدوية أو الحشنة التي يحتاج إليها الحكم .

« وفي أسفل توجد الطبقة الثالثة من أفراد الصناعات اليدوية والتجارة ومعظم الفنون والعلوم . ومن سنن الطبيعة أن يكون كل هؤلاء من المرافق العامة في الأمة أو دواليب تدور ووظائف تؤدي . والسعادة الوحيدة التي يستطيعها أفراد هذه الطبقة هي قدرتهم على أن يكونوا آلات ذكية ، لأن الرجل المتوسط يفهم من السعادة أنها حال التوسط . والتخصص أو التفوق في تدريب معين هو غريزتهم .

« ولا يليق بالذهن الضيق أن يعارض حال التوسط هذه . لأن هؤلاء المتوسطين ضرورة للمجتمع البشري . إذ يتيحون للرجل الفذ أن يوجد .

« من من الناس أكرهه أكثر من غيره ؟

« أكره ذلك الاشتراكي الذي يهدم الغرائز السامية عند العامل

بأن ينزع منه إحساس القناعة بمكانه ويجعله حسوداً ويعلمه الانتقام . . .

« أجل يجب أن نعرف أنه ليس هناك ظلم في تفاوت الحقوق » .

• • •

مات نيتشه في عام ١٩٠٠ . أى دفن في هذه السنة . ولكن الواقع أنه كان ميتاً منذ حوالي عام ١٨٨٥ للمرض الذى أشرنا إليه . وهو مرض لم يقعد جسمه فقط بل أمات ذهنه . ولم يكد العالم المتمدن يحس بوجوده إلا بعد وفاته . وكان الإحساس عندئذ حاداً . فمنذ عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩٥٠ ونيتشه يعلو على جميع المفكرين الأوربيين ، بل يمثل مشكلة الضمير الأوربي مشكلة السياسة الأوربية ، سياسة التنازع إزاء سياسة التعاون . وهو لو كان فيلسوفاً فقط ، يكتب بالبطانة الفلسفية التى لا يفهمها غير المثقفين ، لما كان خطره كبيراً . لكنه كان شاعراً يتغنى ويترنم ولذلك كان ولا يزال، يجذب إليه الشباب الذين يقودهم إلى الضلال أو يهديهم إلى الرشاد ، فهو غواية وفتنة كما هو نور ومعرفة . هو جنون وعقل .

وأكاد أقول عندما أجد شاباً يقرأ نيتشه : حذار ، لا تقدم . إنك على طرف هاوية . وقد تنزلق فتتردى ، ولكن اقرأ دستوفسكى وغاندى وشيفتزر وبرناردشو ، فهم الترياق الذى تحتاج إليه إذا قرأت نيتشه . لا . بل يجب أن تقرأ نيتشه ، لأن أقل ما فيه أنه يحثك على التساؤل والاستطلاع ، ويحول بينك وبين التسليم المطلق للعرف والعادة . إذ هو قوة تحريرية عظيمة ، ولكنه أيضاً يحملك تبعات سامية بشأن المستقبل البشرى على هذه الأرض ويكسبك العمليّة الفلكية التكهنية في الفلسفة وعندئذ ستعرف أن القيمة العظمى في الفلسفة ليست نظاماً منطقيّاً يقول بأن اثنين وأثنين يساويان أربعة ، وإنما هي في تعيين القيم والأوزان الأخلاقية التى تخدم رقى الإنسان ، وفي التكهّن بالمستقبل البشرى والاستعداد له . وميزة نيتشه هنا أنه استطاع أن يقنع أوربا بأن الأخلاق يجب أن تنبنى على أساس بيولوجى بشرى .

كتب نيتشه حوالى عام ١٨٨٠ إلى أخته يقول :

« عدينى أننى عندما أموت لن يقف حول نعشى سوى أصدقاؤى ولن يكون حولى أحد من الغوغاء المتسائلين . وأعملى على ألا يلتقى قسيس على قبرى أكاذيب وأنا عاجز عن حماية نفسى ، وودعيتى إلى قبرى وأنا وثى شريف » .

ومات فى عام ١٩٠٠ مغموراً لم ترثه جريدة ولم تذكره جامعة . ولكنه بعث بعد موته ، إذ أصبح الضجة الكبرى والصيحة العالية فى جميع الأوساط المثقفة ، ولا يزال دويه عالياً واسمه رمزاً للتساؤل .

وفى نفسى له حب وأسف وإقبال وصدود .